

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله تعالى، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا نجات له وليا مرشداً.

والصلاة والسلام على محمد عبد الله ورسوله، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان، وأشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد حتى أتاه اليقين من ربه، وبعد:

فإن الدعوة إلى الله تعالى أشرف الأعمال وأرفع العبادات، وهي أخص خصائص الرسل الكرام، وأبرز مهام الأولياء والأصفياء من عباده الصالحين.

ولا يصبح المرء داعية إلى فكرة من الأفكار إلا بعد تحقق انتسابه إليها وتفاعله مع قضاياها. وصاحب الدعوة يعيش بها وتعيش به وتُحسب عليه كما يُحسب عليها.

ولقد شاء الله تعالى أن تشق دعوة الإسلام طريقها في التاريخ الحديث في جميع بلاد العالم، وأصبح لها في كل قطر لسان ينطق بها ويعبر عنها.

ودخلت الدعوة إلى قطاعات المجتمع المختلفة، ولم تعد الدعوة حكراً على الموظفين الرسميين أو على من يطلق عليهم «أرباب الشعائر الدينية» بل شارك فيها الرجال والنساء والصغار والكبار والمشتغلون بالتخصصات العلمية والإنسانية. وهذا المد الذي نجده في جامعات العالم الإسلامي

أصبح بناء عضوياً أصيلاً في بنية هذه الجامعات، بل وفي الجامعات الغربية كذلك.

وهذا التقدم الذي أحرزته دعوة الإسلام لم يخلُ من مصاعب وعقبات داخلية وخارجية، أذكر منها:

أولاً: قلة المربين والموجهين الأكفاء بالنسبة إلى حجم الإقبال الكبير. ولعل هذه الظاهرة من أخطر الأمور التي تحتاج إلى علاج؛ لأن قطاعات كبيرة من الناس تعيش خارج المحاضن الملائمة، مما ينعكس على تكوينها وبنائها، وكثيراً ما يندب بعض غير المؤهلين أنفسهم لدور التربية والتكوين وإعطاء الآراء في أخطر المسائل وأعوصها لخلو الميدان من المؤهلين لذلك.

ثانياً: النقص في البرامج التي تُعد الداعية والموجه إعداداً وفق مستويات مختلفة لتلائم حاجات متنوعة، ويبدو أن النقص أظهر ما يكون في مجال التأصل والتعميد، وأصبح من الأمور الملحة أن تُتلقى الدعوة على شكل تصور متكامل من البداية إلى النهاية، مع استيعاب كلياتها ومعرفة الأولويات فيها.

ثالثاً: تأخر سن العطاء: إذ أن الزمن الذي ينفق قبل أن يصل الفرد إلى مرحلة التأثير هو زمن طويل. ومنشأ ذلك انتشار المعارف والمعلومات واتساع القراءات والتجارب. ولعل التأصيل هو أحد العوامل المساعدة على الإسراع في الوصول إلى مرحلة العطاء والإنجاز، وبمعرفة القواعد الضابطة نستغني عن كثير من الفروع، ونستطيع المواءمة بين اتساع حقول الدعوة وقصر الزمن المحدد للتكوين.

رابعًا: الجهود المعادية لخط الدعوة. وهي جهود متنوعة ذات إمكانيات كبيرة، ولها خبرات واسعة في الصد عن سبيل الله. ورغم الخلافات الحادة بين الشيوعية والرأسمالية وبين الوجودية والقومية وغيرها من الأهواء والفرق الضالة إلا أن الجميع يلتقون على حرب الإسلام ودعوته. وهذه الجهود تُلقي عبئًا كبيرًا على دعاة الإسلام، الذين عليهم أن يدركوا مخططات أعدائهم، وأن يدفعوا عن الناس شرور هؤلاء الأعداء بأسلوب الوقاية والعلاج.

خامسًا: وإن مغريات الحياة ومشاغلها وتعقيداتها عقبة في طريق الدعوة والدعاة. ولا بد أن يفهم الدعاة حركة الحياة والأحياء، وأن يُلموا بالنفس البشرية وطرق التأثير فيها، ووسائل تزكيتها. ولعل من المظاهر الملفتة للنظر تقدم الدعوة في صفوف الأغنياء وأولئك الذين عاشوا في غمار الحضارة الغربية، وتعرضوا لمغريات الجاهلية الحديثة. وهذه الظواهر تساعد على تكوين مناعات ودفاعات أمام المغريات.

سادسًا: ويجد الداعية نفسه أما تيارات فكرية تتحرك وتتقلب بسرعة هائلة، وتصل إلى الإنسان أينما كان، وإن الداعية مطالب بالوقوف في وجه هذه التيارات الفكرية، وأن يكون وقوفه أمامها قائمًا على العلم والموضوعية.

ثامنًا: هذه الأعباء وغيرها تُلح علينا أن ننقل الدعوة من ميدان المشاعر والانفعالات والخطب والمقالات إلى ميدان التخطيط والتنظيم والبرمجة والتأهيل والتععيد.

تاسعًا: وليس غريبًا أن تبرز هذه الحاجات في هذه الآونة؛ لأن الدعوة

اتسعت وتشعبت وكثرت ممارستها وتجاربها وأساليبها. وهذا الاتساع والتشعب لا يُضبط إلا بالكشف عن الأصول والقواعد.

وليس أمر الدعوة بدعاً من أمور العلوم الإسلامية الأخرى. فقد تناول المسلمون حديث رسول الله ﷺ بالرواية والدراية فوجدوا أنفسهم بحاجة إلى علم أصول الحديث ومصطلحه، وكذلك الحال في النحو والصرف والعقيدة والتفسير والتاريخ والفقه، فإن أصول العلوم وقواعدها جاءت في مرحلة متأخرة عنها.

وفي الوقت الذي اتجهت فيه العلوم إلى التأسيس والتعقيد كان علم الدعوة أقوالاً ماثورة وشذرات مثورة، ولم يكن علماً بالمعنى الاصطلاحي للعلم، لأن مبعث العلم الحاجة إليه، ولم يكن الإسلام في المجتمع الإسلامي مهجوراً أو غريباً، وإنما كان قائماً فاعلاً ناشطاً، وأكثر أفرادهم يمارسون الدعوة كما يعيشون ويأكلون ويشربون وعندما دالت دولة الإسلام، ونقضت عرى الإيمان، وجد المسلم نفسه غريباً في المجتمع، ورجعت أمية العقيدة والفكر والنظم كما كانت في عهد الجاهلية الأولى، فأخذ بعض الدعاة على عاتقهم إعادة التأسيس وشرعوا في تهيئة المكان والسكان لاستئناف الحياة الإسلامية، ودب الأمل بعد اليأس، وانطلق الدعاة شرقاً وغرباً عرباً وعجماً، ودرس العلماء هذه التجارب وكشفوا عن جوانبها الإيجابية والسلبية.

ورغم النتائج الإيجابية التي حققتها الدعوة إلى الله في جميع الأقطار، إلا أنها - وكما سبق أن أشرت كانت بحاجة إلى المزيد من توظيف الطاقات والإمكانات، وحشد كل الجهود في سبيل البناء، ولا نصل إلى هذا التوظيف

إلا بإعداد الأفراد للعطاء على مستويات متفاوتة، وأن يكون لكل وظيفة من وظائف الدعوة إعدادها الخاص وزمنها المناسب، ولا يتحقق هذا إلا عن طريق نظام تربوي محدد الخطوات، يعتمد القواعد والأطر العامة دون الخوض في الكثير من الدقائق والتفاصيل، ويقدم للداعية خلاصة مُركزة في التربية والتكوين والقيادة والتنظيم والتخطيط والمتابعة.

والكتاب الذي أقدمه لإخواني محاولة في تقعيد الدعوة وتأصيلها، على شكل عدد من القواعد، بعضها في التصورات، وبعضها في الأساليب والوسائل.

وفيه وجهة نظر أقدمها للدراسة والنقد، وهي بداية وليست نهاية إن شاء الله تعالى.

والله من وراء القصد.

الدكتور همام عبد الرحيم سعيد

عمان / ١٩٨٠م

مقدمة الطبعة الثانية

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا تجد له وليًا مرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، فصلوات الله وسلامه على هذا النبي الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، وبعد:

فهذه طبعة جديدة من كتاب قواعد الدعوة إلى الله تأتي مزيدة بعد ما يزيد على خمس عشرة سنة من الطبعة الأولى، فقد احتوى الكتاب في طبعته الأولى على خمس عشرة قاعدة، وها هو اليوم يظهر مع إضافة ست قواعد أخرى. وقد جاء في هذه القواعد تأصيل شرعي لعدة جوانب من العمل الإسلامي، كالتأصيل للجماعة التي كثر الكلام عن مشروعاتها وأحقيتها وصفاتها، وقد ناقشت هذه القاعدة الموقف من الفتن وطرح مفهوم الاقتحام بدل مفهوم الانسحاب، وتناولت خطر العزلة على الأمة في الوقت الذي تحتاج الأمة إلى المجاهدين العاملين.

كما احتوت هذه الإضافة على قاعدتين رئيسيتين في الفهم، الأولى تؤصل للفهم وأهميته وضوابطه وأركانه وأثره على المسيرة الإسلامية العامة، والثانية تناقش الفهم السائد في مقابل الفهم الواجب.

كما احتوت هذه الإضافة على قاعدتين رئيسيتين للأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر، الأولى تؤصل لهذا الركن الأساس من أركان الدعوة الإسلامية، وتبين المجالات التي يعمل فيها كل من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والثانية تناقش بعض الاتجاهات المنحرفة في فهم القرآن، وتأتي للدفع باتجاه الحركة الإيجابية في مقابل الحركة السلبية الانسحابية الانهزامية التي يلجأ إليها بعض المسلمين.

أما قاعدة العمل العام فقد جاءت تفصل وتؤسس وتؤصل للعمل الإسلامي العام الذي يفتح الباب لأسلمة المجتمع وجمهوره.

وقد جاءت هذا الإضافات نتيجة جهد ومعاناة، فهي رشحات قلب قبل أن تكون رشحات قلم، فإن وُفقت فمن الله تعالى، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، وأدعو الله أن لا يحرمني من واعظ ناصح. والحمد لله رب العالمين.

الدكتور همام عبد الرحيم سعيد

عمان في ٤ جمادي الأولى ١٤١٩ هـ

الموافق ٢٦/٨/١٩٩٨ م

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه وسلم تسليمًا
كثيرًا، وبعد:

فهذا كتاب قواعد الدعوة إلى الله في طبعة جديدة فيها شيء من التنقيح والتصحيح والاستدراك، والذي دفعني لهذا كثرة الناشرين والمصورين والمترجمين، فقد وجد هذا الكتاب إقبالاً ورواجاً، وقد أذنت لكل راغب في نشره وطباعته وترجمته أن يقوم بذلك، وقد تُرجم الكتاب إلى العديد من اللغات، فأسأل الله تعالى القبول على تأليفه ونشره وترجمته، وأن يكون عمل هؤلاء جميعاً سنة حسنة، لهم أجرهم وأجر من عَلم وعَلَّمَ، ونفع وانتفع.

وأثناء مراجعتي للكتاب تذكرت قصتي معه يوم كنت مع لفيف من الفضلاء في كلية الشريعة في الجامعة الأردنية، أذكر منهم: الأستاذ الدكتور ابراهيم زيد الكيلاني، والأستاذ الدكتور محمد نعيم ياسين، والدكتور عبد الله عزام، والدكتور محمد أبو فارس، والدكتور محمود عبيدات، والأستاذ الدكتور ياسين درادكة، والأستاذ الدكتور فضل عباس، والدكتور راجح الكردي، رحمهم الله، وأمد في عمر الدكتور محمد نعيم، إلى جانب آخرين من كبار علماء العالم الإسلامي، وكان ذلك في حدود سنة ١٩٨٠م، حيث أنشئ في الكلية قسم للدعوة إلى جانب قسم الفقه وأصوله وقسم أصول الدين، وأسند إليّ القيام برئاسة هذا القسم بالإضافة لرئاسة قسم أصول الدين، وكان يساعدي في هذا القسم الجديد الدكتور راجح الكردي.

وعند التفكير بوضع خطة للقسم رجعنا إلى خطط أقسام الدعوة في الجامعات الأخرى، فوجدنا أن المواد لا تخرج عن مواد أصول الدين، فعزمت أن أدرس مادة جديدة في عنوانها ومضمونها، أطلقت عليها اسم

(قواعد الدعوة)، وسهرت الليالي الطوال حتى فرغت من هذا الكتاب، كان منطلقني فيه أن العلماء استخرجوا قواعد العلوم الشرعية وأصولها، فلماذا لا نعمل على محاولة لاستخراج قواعد الدعوة وأصولها، فكان هذا الكتاب في قواعده الخمس عشرة الأولى ثمرة هذا التدريس، والله الحمد.

لقد أصّل هذا الكتاب للدعوة بكلمات اختصرت المكان والزمان، فالغاية عبادة الله تعالى، والوسيلة لهذه الغاية الدعوة، وهي أي الدعوة وظيفة الفرد الداعية، ووظيفة الجماعة الداعية، ووظيفة الدولة الداعية، وبقاء الجنس البشري ومعه هذا الكون مرتبط بالدعوة، بدءاً بإعلان الخليفة الداعية آدم عليه السلام، ويستمر هذا الأمر على تعاقب الأجيال، تحمله الطائفة المنصورة، إلى أن يأتي أمر الله بقيام الساعة. وعليه فالتاريخ البشري كله تاريخ دعوة.

القواعد الرئيسة في الكتاب إحدى وعشرون قاعدة، ولكن الكتاب كله قواعد، فأعطه حقه -أيها القارئ الداعية - من التأمل والتعمق، وأدعوك إلى استخراج العشرات من القواعد النافعة، إن شاء الله تعالى.

كتب هذا الكتاب قبل أربعين عاماً، وقد عالج مشكلات متوقعة، فوقعت، واشتمل على قراءة استباقية لبعض ما يلزم أبناء الدعوة في الفكرة والتنظيم والحركة والبناء، فليقرأ هذا الكتاب في ظلال هذه الأربعين سنة.

وما يزال كاتبه الفقير إلى الله يطمع في ملاحظات إخوانه وتنبهاتهم وتصويباتهم، والله الهادي إلى سواء السبيل.

وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

الفقير إلى عفو الله تعالى

الدكتور همام عبد الرحيم سعيد

عمان / ٢٨ جمادى الثاني / ١٤٤٢ هـ الموافق ١٠ / ٢ / ٢٠٢١ م

القاعدة الأولى

الدعوة إلى الله سبيل النجاة في الدنيا والآخرة

على الداعية أن يعلم أن الله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والعبادة في ديننا لا تكون إلا على بصيرة، والبصيرة لا تكون إلا وفق منهج الله الذي أنزله على رسله وأنبيائه، فكان هؤلاء المرسلون والأنبياء دعاة يهدون إلى الحق، وكان هذا هو شغلهم الشاغل تحقيقاً لمراد الله الذي جعل آدم خليفة في الأرض، يقضي بقضاء الله وينفذ أمر الله، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فكان مراد الله تعالى من خلق الإنسان أن يكون مشغولاً بأمره، وهو القائل سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

يقول الرازي: «ما العبادة التي خلق الجن والإنس من أجلها؟ قلنا: التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله»^(١). ثم يقول: «ولما كان التعظيم اللائق بذي الجلال والإكرام لا يُعلم عقلاً، لزم اتباع الشرائع فيه والأخذ بقول الرسل عليهم السلام، فقد أنعم الله على عباده بإرسال الرسل وإيضاح السبل في نوعي العبادة»^(٢). وهذا التقسيم لوظائف العبادة تقسيم موجز وشامل.

(١) تفسير الرازي ٢٨ / ٤٣٥.

(٢) المصدر السابق.

والدعوة إلى الله تعالى هي أبلغ مظهر من مظاهر تعظيمه، وصاحب الدعوة يدعو إلى فكرة أو هدف ويصرف جهده في سبيله، وإنما يفعل ذلك لامتلائه بهذا الهدف أو هذه الفكرة. ومن دعا إلى فكرة فإنه يحسب عليها كما تحسب هي عليه كذلك.

وفي الدعوة إلى الله تعالى دليل شفقة على عباد الله، لأن الداعية يريد إخراج الناس من أوضاع التمزق والشتات تحت وطأة الأنظمة الوضعية، إلى سعة الدين وآفاقه الرحبية، ونظمه الكفيلة بإسعاد البشر. وأن يخرجهم من النار إلى الجنة كذلك.

هذان هدفان كريمان من أهداف العبادة، وهما هدفان من أهداف الدعوة إلى الله أيضًا. والنجاة في هذين الهدفين.

وقد التزم أنبياء الله ورسله الكرام أمر الله في الدعوة إليه والحفاظ على الغاية من خلق الله لهم، وحرص كل رسول كريم على دعوة الخلق إلى هذه النجاة.

ولقد قصَّ القرآن الكريم علينا معركة الأنبياء مع أقوامهم. مؤكدًا دائمًا على نجاة الدعاة وعلى هلاك الظالمين المعرضين:

ففي قصة نوح عليه السلام مع قومه كانت النهاية: ﴿كَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا غَرَقًا وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَنُظِرْكِيفَ كَانَ عِقَابُ الْمُذْذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣].

وفي قصة هود عليه السلام مع قومه كانت النهاية: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

وفي قصة صالح عليه السلام مع قومه كانت النتيجة: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

وفي قصة لوط عليه السلام كانت النتيجة: ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوهُ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١ - ٨٢].

وفي قصة شعيب عليه السلام مع قومه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ [هود: ٩٤].

وفي قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه كانت النتيجة: ﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [٣٦] وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٦ - ١٣٧].

وفي قصة القرية التي كانت حاضرة البحر كانت النتيجة: ﴿فَلَمَّا دَسَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِءَ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

كل هذه الآيات تؤكد أن النجاة في الدعوة إلى الله. وهذا وعد الله تعالى للمؤمنين: ﴿ثُمَّ نُجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

فتكون نجاة المؤمنين الداعين إلى الله «حقاً بسبب الوعد والحكم»^(١).

يقول سيد قطب رحمه الله: «هذه سنة الله في الأرض، وهذا وعد لأوليائه فيها، فإذا طال الطريق على العصبة المؤمنة مرة فيجب أن تعلم أن هذا هو الطريق، وأن تستيقن أن العاقبة والاستخلاف للمؤمنين، وألا تستعجل وعد الله حتى يجيء وهي ماضية في الطريق. والله لا يخدع أوليائه، ولا يعجز عن نصرهم بقوته ولا يُسلمهم كذلك لأعدائه. ولكنه يعلمهم ويدربهم ويزودهم - في الابتلاء - ب زاد الطريق»^(٢).

لا خسارة في الدعوة:

وليس أمر الدعوة كما يظن بعض الناس أنها تعب وخسارة ونصب وألم، فإنها وإن كانت لا تخلو من المتاعب والمصاعب لكنها لذیذة الطعم، عزيزة على القلب، ولذلك فإن أصحابها يضحون في سبيلها بالغالي والنفيس، ويستعذبون العذاب، ويجدون الموت حياة من أجلها. وهم أسعد بها من الناس بدونها. أما العاقبة فهي الفوز، وفي غيرها الفشل وهي الباقية وغيرها الفانية.

دعوة محمد ﷺ أمان للبشرية

ويلاحظ من سياق الآيات الكريمة التي تتحدث عن معركة الأنبياء مع أقوامهم أن المكذبين من هؤلاء الأقوام كانوا يُستأصلون بعذاب الله تعالى فلا يُبقى على الأرض منهم دياراً، ولا يترك الله منهم باقية. وبمجيء محمد ﷺ رُفِعَ هذا الاستئصال العام بالطوفان والصاعقة والريح، وذلك تكريماً

(١) تفسير الرازي: ١٧ / ١١٧١.

(٢) في ظلال القرآن، ٣ / ١٨١٢.

لهذه الأمة التي لا تخلو من قائم لله بالحجة، ولا من الطائفة الظاهرة على أمر الله حتى يأتي الله بأمره، وهذه الطائفة هم الدعوة. وبهم يكتب الله النجاة للأمة من أن تهلك بسنة عامة. وعندما تخلو الأرض من هذا الصنف الكريم على الله، فإن الساعة تقوم، وقد جاء هذا المعنى في أحاديث كثيرة منها:

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة إلا على أشرار الناس»^(١).

وقال ﷺ: «لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله الله»^(٢). وفي رواية: «حتى لا يقال في الأرض: الله الله».

وقال ﷺ: «يُقبض الصالحون الأول فالأول ويبقى حثالة كحثة التمر أو الشعير لا يعبا الله بهم شيئاً»^(٣).

وهذه الأحاديث تدل على أن قيام الساعة يقترن به ذهاب الدعوة والدعاة، ولا أعني بهذا الاقتران اقتران السبب أو الشرط بالمسبب أو المشروط، وإنما أعني أن الله تعالى يكرم الإنسانية بالدعوة والدعاة، وأنه ما دام الدعوة وما دامت الدعوة، فإن الغاية من الخلق على هذه الأرض باقية، فإذا زال الدعوة والدعوة فقد خسر الإنسان مبرر وجوده على هذه الأرض. وهكذا فإن الإنسان يقع بين نهايتين، أو بداية ونهاية:

الأولى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

والثانية: قوله ﷺ «إن الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير، فلا تدع

(١) أخرجه مسلم ٤/ ٢٢٦٨.

(٢) أخرجه مسلم ١/ ١٧١ شرح النووي.

(٣) أخرجه البخاري ٨/ ١١٤.

أحدًا فيه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته»^(١).

وأخرج الإمام مسلم عن عبد الرحمن بن شماسه رضي الله عنه قال: «كنت عند مسلمة بن مخلد وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال عبد الله: لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شر من أهل الجاهلية، لا يدعون الله بشيء إلا رده الله عليهم. فبينما هم على ذلك، أقبل عقبة بن عامر، فقال مسلمة: يا عقبة؛ اسمع ما يقول عبد الله. فقال عقبة: هو أعلم، وأما أنا، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله، قاهرين عدوهم، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»، قال عبد الله: «ثم يبعث الله ريحًا كريح المسك مسها مس الحرير، فلا تترك نفسًا في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة»^(٢).

ونلاحظ في هذه الرواية التوفيق بين بقاء الطائفة المؤمنة إلى قرب قيام الساعة، وقيام الساعة على شرار الخلق. وعندئذ يكون معنى وجود الطائفة المؤمنة إلى قيام الساعة يعني إلى قربها قيامها. وهذا ما ذهب إليه النووي وهو يشرح حديث: «إن الله يبعث ريحًا من اليمن..» فقال: «وأما الحديث الآخر لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة فليس مخالفًا لأن معنى هذا أنهم لا يزالون على الحق حق تقبضهم هذه الريح»^(٣).

(١) أخرجه مسلم ١٣٢/١ شرح النووي.

(٢) أخرجه مسلم ١٥٢٤/٣، شرح النووي.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ١٣٣/١.

ولما كان الداعية قد وطّن نفسه على الجهاد وندب نفسه للتضحية في سبيل الله، ودخل طرفاً في مواجهة أعداء الإسلام، فإن هذه المؤهلات تجعله أقدر على المصاولة والمجاولة، وهو بإذن الله منصور ناجٍ، وعدوه مخذول هالك.

وليس المقصود بالنجاة نجاة الفرد من الأذى والألم، وإنما المقصود نجاة الجماعة والفكرة في النهاية، وأما في الآخرة فإن صورة النجاة نعيم مقيم وجنة عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

القاعدة الثانية

«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُر النَّعَم»

هذا ما أخبر به رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه عندما أعطاه الراية يوم خيبر، فقال عليّ: علام أقاتل الناس، نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُر النَّعَم»^(١).

وذلك لأن هدى الله هو الهدى، وأنه ليس بعد الهدى إلا الضلال، وعندما يوفق الله تعالى داعية من دعاة الإسلام فيهيء له من يقبل دعوته فإن نتائج هذا القبول عظيمة جليلة، نذكر منها:

أ- أن في ذلك استنقاذاً لهذا المهتدي من النار، وصيانة له من سعيها ولظاها، وما صُرف عنه من النار إنما كان بعد فضل الله بجهد الداعية وعنايته. واستبدال مقام خالد في النار بمقام خالد في الجنة أمر لا يدانيه شيء من أصناف المعروف، ولا تصل إليه رتبة من رتب الإحسان والجود، فالداعية يقدم الجنة هدية للناس من حوله، ويدلُّهم على مقامات السعادة، وأي أجر يُكتب للداعية عند ربه إلا الأجر الذي يليق بجلال المعطي سبحانه ويتناسب مع قدر العطية؟

(١) أخرجه البخاري (فتح الباري) ٦ / ١١١.

ب- أن كل حركة وسكنة يتحركها المهتدي، وكل تسبيحه أو تكبيرة ينطقها وكل ركعة وسجدة يفعلها وكل إحسان يُجريه الله على يديه، وإنما كان الداعية سبب كل ذلك وطريقه الدال عليه. وإن له مثل أجر فاعله لقول النبي ﷺ: «الدال على الخير كفاعله»^(١)، ولقوله ﷺ أيضًا: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء»^(٢).

وهذا باب من الأجر لا يُغلق، وهو يتنامى يوماً بعد يوم. وإن جُهد أبي بكر الصديق، وبلال، وعمار، وخديجة، وأسماء، وغيرهم وغيرهن، إنما هو أساس في إقبال كل إنسان على الله تعالى إلى قيام الساعة. وإن جهد المصطفى ﷺ هو مبدأ كل جهد طيب بذله مسلم أو يبذله. ولرسول الله ﷺ بعد الله تعالى مَنَّةٌ واي مَنَّةٌ في عنق كل مسلم.

ج- أن من يهتدي على يد الداعية يكون عوناً للداعية على أداء رسالته، ويضمُّ جهده إلى جهد الداعية. وهكذا فإن الدعوة لا تتكاثر إلا عن طريق الدعوة ولا تقوى إلا بالعناصر الجديدة الرافدة، وما تغير حال المسلمين من السر إلى العلن إلا يوم أن دخل عمر وحمزة في دين الله، وما تغير حالهم من الجماعة إلى المجتمع إلا يوم أن دخل الأنصار في دين الله تعالى.

د. وأن الهداية أسلوب من أساليب النصر المادي، ولكنه لا يتحقق في معركة ذات جرح وقرح، ولا عن طريق السيف والسهم، وإنما عن طريق

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، ح ١٨٩٣، ص ١٤٠٦/٣. وسنن أبي داود ح ٥١٢٩، ص ٣٤٦/٥، والترمذي ح ٢٦٧٤، ص ٤٣/٥.

(٢) صحيح مسلم، ح ١٠١٧، ص ٧٠٤/٢ وح ٢٦٧٤، ص ٢٠٦٠/٤.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

هـ- وأن من يهديه الله على يديك أيها الداعية إنما هو لبنة نُزعت من بناء الجاهلية، ووضعت في بناء الإسلام، وسيكون هذا على حساب الكفر والضلال، وهو خسارة للشيطان وأعوانه، وكسب للرحمن وأنصاره. وفي كل مرة يهتدي فيها من يهتدي فإنما يسقط ركن من أركان الجاهلية. وهكذا كان أمر الجاهلية في مكة، ففي كل صباح كان لهم حديث، الكفار يتكلمون عن الصابئين المفارقين الخارجين، والمسلمون يفرحون بالمهتدين المؤمنين وكأني ببناء الكفر يتصدع كل يوم ويفقد من بنائه ما يفتح الشجرة تلو الشجرة فيه.

القاعدة الثالثة

الأجر يقع بمجرد الدعوة ولا يتوقف على الاستجابة

أ- وهذه القاعدة تعالج خطأ شائعاً عند كثيرين، وهو أن الأجر يترتب على النتيجة الدنيوية الظاهرة. مشبهين ذلك بالأعمال الدنيوية التي يُنظر فيها إلى النتائج المحسوسة. ولو كان الأمر في الدعوة إلى الله كذلك لكان كثير من أنبياء الله صلوات الله عليهم محكوماً عليه بالإخفاق، وحاشا أنبياء الله أن يوصفوا بهذا، رغم قلة المؤمنين بدعوتهم، فهذا نوح عليه السلام يدعو قومه، ويمكن فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤] وظاهر سياق الآية، كما يقول ابن كثير أنه مكث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً^(١)، ورغم هذا المكث الطويل فإنه لم يؤمن من قومه إلا قليل، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

ويلاحظ الاستثناء في الآية بعد قوله: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ حتى لا يفهم بأن عدد المؤمنين كان كبيراً قال: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٤١٣.

وكذلك أمر أكثر الأنبياء فإنهم يحشرون يوم القيامة، ومع بعضهم الواحد والاثنان والثلاثة، وبعضهم لا يكون معه أحد من المؤمنين. أخرج الترمذي من طريق ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: «لما أسري بالنبي ﷺ جعل يمر بالنبي والنبيين ومعهم القوم، والنبي والنبيين ومعهم الرهط، والنبي والنبيين وليس معهم أحد»^(١).

ولذلك فقد وجه الله تعالى رسوله محمداً ﷺ إلى هذا المعنى عندما أمره بالدعوة والتبليغ، ولم يطالبه بالنتيجة، فقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]. وقال: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]. وقال: ﴿وَمَا عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

فأمر الهداية بيد الله تعالى، وهو القائل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ب- ومن فقه هذه القاعدة أن الداعية لا يقع تحت الإحباط والضغط النفسية الناشئة عن إعراض الناس وعدم استجابتهم. ولقد رفع الله تبارك وتعالى الحرج عن نبيه ﷺ ولم يكلفه إلا بما يستطيع، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال له: ﴿فَلَعَلَّكَ بَخْعُ نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧]، وفي هذه الآيات تسلية لرسول الله ﷺ حيث كان الحريص على إيصال الخير والهداية إليهم، ولكنهم عموماً وصموا.

والقلب الرحيم يتقطع عندما يرى الناس يتهافتون في النار تهافت الفراش،

(١) أخرجه الترمذي ٦٣١ / ٤ وقال: حديث حسن صحيح.

وكذلك كان حال رسول الله ﷺ فجاء التوجيه الرباني: ﴿فَلَعَلَّكَ بَخْعُ نَفْسِكَ﴾ أي مهلكها أسمى وأسفاً عليهم، لأنهم لم يؤمنوا بالقرآن الكريم. قال قتادة: «لعلك قاتل نفسك غضباً وحزناً عليهم؟! وقال مجاهد: «جزعاً» والمعنى متقارب، أي لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها»^(١).

وكذلك رُفِعَ هذا الحرج عن الدعاة من أمة محمد ﷺ، إن لم يهتد الناس، ولم يستجيبوا لهم بعد استنفاد غاية الجهد معهم؛ لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

ج- وفي هذه القاعدة علاج لأولئك المتعجلين من الدعاة الذين ينتظرون النتائج الدنيوية الظاهرة، ويجعلونها شرطاً للمواصلة والسير في طريق الدعوة. وهذا التلازم إنما هو سوء فهم من جهة، ومخالفة صريحة لقواعد الدعوة في القرآن والسنة من جهة أخرى.

ولقد أكد القرآن الكريم عدم التلازم بين الدعوة والاستجابة، فقد يبذل الداعية قصارى جهده، ولا يجد من المدعو سوى الاعراض، وقد جعل القرآن الكريم بين الدعوة والاستجابة مرحلة وسيطة يبدو أنها ضرورية، وهي مقتضى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ﴾ [يوسف: ١١٠] وهي مرحلة، ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ والوصول إلى هذه المرحلة وسيط بين الدعوة وبين المرحلة الثالثة: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾.

قال ابن كثير: «يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٦٧.

عليهم أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله في أحوج الأوقات إليه، كقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقد فهمت عائشة رضي الله عنها أن هذا الظن إنما هو ظن الأتباع لا ظن الرسل أنفسهم، وذلك عندما قال لها عروة: فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن، قالت: أجل، لعمرى، لقد استيقنوا بذلك، فقلت لها: وظنوا أنهم قد كذبوا؟ قالت: معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها، قلت فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنوا أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك^(١). وذلك بناء على قراءة عائشة رضي الله عنها بتشديد «كُذِّبُوا» فيكون الفاعل الأتباع لا الرسل^(٢). وهو توجيه يليق بمقام الرسل الكرام. وإذا جعلنا الضمير للرسل كان ظنهم حينئذ أن قومهم قد كذبوهم. ولا مانع من الجمع بين المكذبين من أقوام الرسل وبين المتعجلين الظانين بالله ظن السوء.

د- ولا يعنى هذا أن الداعية غير مطالب ببذل قصارى جهده، واستخدام أحسن ما يستطيع من الأساليب والوسائل، وهذا ما سنذكره في قاعده البلاغ التالية.

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٦٠-٦١.

(٢) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٦.

القاعدة الرابعة

على الداعية أن يصل إلى رتبة المُبَلِّغ وأن يسعى إلى البلاغ

أ- ليس أمر الدعوة إلى الله بأقل من أمر الدعوة أو الدعاية إلى سلعة دنيوية. ونحن على يقين أن صاحب البضاعة يستخدم أقوى الوسائل وأوسعها انتشارًا من أجل إيصال الجمهور إلى درجة القناعة ببضاعته، ونراه في سبيل ذلك يستخدم الكلمة والصورة والهدية وغير ذلك من الوسائل.

وقد جعل الله تعالى مهمة رسله وأنبيائه البلاغ، فقال: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا أَلْبَلُغُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النحل: ٣٥]، ووصف البلاغ بأنه المبين. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

عند إعراض الناس عن الإيمان كان يأتي التأكيد على وصول الأنبياء إلى رتبة البلاغ، قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلْقَوْمَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٧٩].

وكلمة بَلَّغَ: تعني وصل أو قارب على الوصول، يقول ابن فارس: «الباء واللام والغين أصل واحد «أي معنى واحد»، وهو الوصول إلى الشيء تقول: بلغت المكان إذا وصلت إليه»^(١)، ويقول: «وكذلك البلاغة التي يمدح بها الفصيح اللسان لأن يبلِّغ بها ما يريد»^(٢).

(١) معجم مقاييس اللغة ١/ ٣٠١.

(٢) المرجع نفسه ١/ ٣٠٢.

وقال الأزهري: «والعرب تقول للخبر يبلغ أحدهم ولا يحققونه، وهو يسوءهم: سَمِعُ لا بَلُغُ، أي نسمعه ولا يبلغنا، ويجوز: سَمِعًا لا بَلُغًا»^(١).

وهذا دليل على أن استعمال كلمة البلاغ إنما كان لما فيها من طبيعة الوصول والانتهاء.

ب- ولا معذرة للداعية إذا قصر في البلاغ، ولقد نبه الله تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ إلى مثل هذا قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

قال القرطبي: «وهذا تأديب للنبي ﷺ وتأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئاً من شريعته»^(٢). وليس المقصود بالبلاغ مجرد الإخبار أو الإعلان، إنما المراد أن تصل رسالته للناس.

ج- ومن مقتضيات البلاغ أن يعي الداعية ما يُبلّغه، لأنه لا تبليغ بلا وعي، ويستفاد هذا من قوله ﷺ: «نَضَرَ اللَّهُ امرءًا سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلّغها، فَرَبَّ حَامِلٍ فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغلّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن الدعوة تحيط من وراءهم»^(٣).

(١) تهذيب اللغة ٨/ ١٤٠.

(٢) تفسير القرطبي ٦/ ٢٤٢.

(٣) أخرجه الترمذي من روايات عديدة ٥/ ٣٤، وأخرجه ابن ماجة كذلك ١/ ٨٤، ٢/ ١٠١٥، وأخرجه الإمام أحمد من عدة روايات ١/ ٤٣٧، ٣/ ٢٢٥، ٤/ ٨٠، ٨٢، ٥/ ١٨٣، وأخرجه الدارمي في المقدمة: ٢٤.

قال الخطابي في شرحه لهذا الحديث: «نَضَّرَ اللهُ معناه الدعاء له بالنضارة وهي النعمة والبهجة»^(١). وهذه النضارة من آثار التبليغ على المُبلِّغ فالمُبلِّغون أصحاب الوجوه الناضرة في الدنيا والآخرة.

واستفاد الخطابي من هذا الحديث كراهة اختصار الحديث لمن ليس بالمتناهي بالفقه^(٢) وعلى هذا فإن الوعي يكون بحفظ النص وأدائه كما قيل. ويكون للفقيه بمحافظته على المعاني المستفادة، ويترتب على هذا الحديث كل ما يتعلق بالرواية والدراية من العلوم والتفاصيل.

د- ومن مقتضيات البلاغ: البلاغة.

والبلاغة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]: أن يكون كلامًا حسن الألفاظ حسن المعاني مشتملاً على الترغيب والترهيب والتحذير والإنذار والثواب والعقاب، فإن الكلام إذا كان هكذا عَظُمَ وقعه في القلب، وإذا كان مختصراً ركيك الألفاظ ركيك المعنى، لم يؤثر البتة في القلب^(٣).

وقال في «اللسان»: رجل بليغ: حسن الكلام فصيح، يُبَلِّغُ بعبارة لسانه كُنْهَ ما في قلبه^(٤).

وليست البلاغة في صعوبة الألفاظ والأساليب، والبحث عن وحشي الكلام وغريبه.

(١) معالم السنن ٤/ ١٨٧.

(٢) المصدر نفسه ٤/ ١٨٧.

(٣) تفسير الرازي ١٠/ ١٥٩.

(٤) لسان العرب ١٠/ ٣٠٢.

وبناء عليه فإن على المُبلِّغ أن يعلم من لغة العرب وأساليبهم ما يعينه على البلاغ.

ومقتضى هذا بحث وإطلاع، واعتناء باللغة العربية: علماً وقراءة وكتابة ومحادثة، ونظراً في أدب العرب نثراً وشعراً، وفي نظم القرآن مبني ومعنى. والدعاة اليوم هم أحوج ما يكونون لهذا ولا يُعذرون بالقصور فيه. هـ- ولقد جاء القرآن بتأكيد الفصاحة وسلامة النطق.

وذلك عندما قال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةَ مِّن لِّسَانِي﴾ (٢٧) يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿[طه: ٢٧ - ٢٨]، فقد علم موسى عليه السلام أن سلامة النطق وفصاحته من أسباب البلاغ وإقامة الحجة، قال الرازي: «اختلفوا في أنه عليه السلام لِمَ طلب حل تلك العقدة على وجوه»: أحدها: لئلا يقع في أداء رسالته خلل البتة.

وثانيها: لإزالة التنفير؛ لأن العقدة في اللسان قد تفضي إلى الاستخفاف بالقائل وعدم الالتفات إليه^(١).

ثم قال ورابعها: طلب السهولة لأن إيراد مثل هذه الكلام على مثل فرعون في جبروته وكِبَرِهِ عَسِرٌ جداً، فإذا انضم إليه تَعَقُّدُ اللسان بلغ العسر إلى النهاية، فسأل ربه إزالة تلك العقدة تخفيفاً وتسهيلاً^(٢).

ويستفاد من هذه القاعدة أن على الداعية أن يُعوِّد نفسه على النطق الصحيح، وإذا كانت في لسانه عقدة فليستعن بمن يفصح عنه، ويساعده في

(١) تفسير الرازي ٤٨/٢٢.

(٢) المصدر نفسه.

مهمته، وذلك كي يصل بدعوته إلى درجة البلاغ والبيان، وهذا ما سأل موسى عليه السلام ربه سبحانه: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص: ٣٤]. والرَّدُّ: اسم ما يستعان به. قال الرازي في تفسير هذه الآية: «ليس الغرض بتصديق هارون أن يقول له صدقت أو يقول للناس: صدق موسى، وإنما هو أن يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل ويجيب عن الشبهات ويجادل به الكفار، فهذا هو التصديق المفيد، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ﴾ وفائدة الفصاحة تظهر فيما ذكرناه لا في مجرد قوله: صدقت»^(١).

و- ومما يساعد الداعية على البيان والبلاغ وجود إخوانه معه إلى جانبه، فإن وجودهم يشد من عضده: ويلقي في رُوعه الطمأنينة من جهة، ومن جهة أخرى فإن وقع ذلك على المدعوين كبير، إذ عندما يرى المدعوون أن الداعية ليس وحيداً، وأن معه أنصاراً وأعواناً، فإنهم يلاحظون أثر الدعوة في الناس، ويحملهم هذا على إمعان الفكر في هذه الدعوة.

قال تعالى مخاطباً موسى عليه السلام: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥]، وقال على لسان موسى أيضاً: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ هَارُونُ أَخِي ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي﴾ ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٩ - ٣٢] قال الرازي في تفسيره لهذه الآية: «واعلم أن طلب الوزير إما أن يكون لأنه خاف من نفسه العجز عن القيام بذلك الأمر فطلب المُعين، أو لأنه رأى أن للتعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة الودّ وزوال التهمة مزية عظيمة في أمر الدعاء إلى الله. ولذلك قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]

(١) تفسير الرازي ٢٤ / ٢٤٩.

وقال لمحمد ﷺ: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

ز- ولكي يصل الداعية إلى درجة البلاغ فعليه أن يستعمل الوسائل الكاشفة عن مراده، المُقَرَّبَة لدعوته، وهذا ما يعرف بوسائل الإيضاح، والوسائل المُعِينَة. وعلى الداعية أن يخاطب الناس بالصورة والفيلم والخارطة والرسم البياني والمقطع التوضيحي والرحلة الهادفة والقصة والمثل والقصيدة ومخلوقات الله تعالى وعجيب صنعه.

النبي ﷺ يستخدم وسيلة الإيضاح:

أخرج البخاري عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: «كنا عند النبي ﷺ فأتى بجُمَّار^(١) فقال: إن في الشجر شجرة مثُلها كمثل المسلم، فأردت أن أقول: هي النخلة، فإذا أنا أصغر القوم، فسكت، فقال النبي ﷺ: هي النخلة»^(٢).

فالنبي ﷺ سأل عن شجرة يشبهها المسلم، وتشبهه، وكان عند السؤال يأكل من الجُمَّار. قال ابن حجر: «لما ذكر النبي ﷺ المسألة عند إحضار الجُمَّار إليه فهم ابن عمر أن المسؤول عنه النخلة»^(٣).

إبراهيم عليه السلام يستخدم وسائل الإيضاح:

والقرآن الكريم يقص علينا كيف كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام يستخدم هذه الوسائل المعينة عندما أراد أن يدعو قومه إلى عبادة الله

(١) الجُمَّار: ما في رأس النخلة من اللب، وطعمه حلو طيب.

(٢) أخرجه البخاري ١/ ١٦٥ مع فتح الباري.

(٣) فتح الباري ١/ ١٦٥.

ويصرفهم عن عبادة النجوم والكواكب. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٦ - ٧٩].

وهذا أسلوب فيه التنزل مع المدعو والتدرج معه حتى يتوصل إلى إبطال مُدَّعاه وإقامة الحجة عليه.

ومعاذ الله أن يكون هذا هو معتقد إبراهيم عليه السلام. قال الرازي في تفسيره: «إن هذه الواقعة إنما حصلت بسبب مناظرة إبراهيم عليه السلام مع قومه، والدليل عليه أن الله تعالى لما ذكر هذه القصة قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣] ولم يقل على نفسه، فعلم أن هذه المباحثة إنما جرت مع قومه لأجل أن يرشداهم إلى الإيمان والتوحيد»^(١).

وأما قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ فمعناه على زعمكم واعتقادكم وذلك كقول موسى عليه السلام للسامري: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧]، فإن موسى عليه السلام لم يقره على مدعاه وإنما حكى زعمه وادعاءه. وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ [القصص: ٦٢]. فالشركاء هنا على حد زعم المشركين وادعائهم. وبهذا يكون إبراهيم عليه السلام قد دحض عقيدتهم في عبادة الحوادث والمتغيرات، وأثبت عقيدته في عبادة الواحد الباقي، الذي لا يعتريه النقص والتغير.

(١) تفسير الرازي ٤٨/١٣.

ومثال آخر جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْ شَيْعَتِهِ لِبَرْهِيمَ﴾ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَفَكُفَّاءُ إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَقَوْلُوا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِ الْهَيْمِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿[الصافات: ٨٣ - ٩٣].

وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٩٥) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذِهِ بِآلِ الْهَيْتِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٩٦) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٩٧) قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٩٨) قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذِهِ بِآلِ الْهَيْتِ يَا إِبْرَاهِيمُ (٩٩) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ بَعْثٌ يُبْعَثُ بِهِمْ هَذَا فَاصْكُفُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿[الأنبياء: ٥٨ - ٦٣].

ونلاحظ أن إبراهيم عليه السلام استخدم أسلوبًا من أساليبهم عندما يمرضون، وهو المكث عند الأصنام طلبًا للشفاء، ونراه يحطم الأصنام إلا صنمًا كبيرًا، لعلهم إليه يرجعون، ثم نراه ينسب الفعل لهذا الكبير، وتأكيدها لهذا فقد جعل الفأس في رأسه، وهذا كله جعلهم يقولون: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٦٤) ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿[الأنبياء: ٦٤ - ٦٥]. وبهذا فقد حكم المشركون على أنفسهم بالجهل والغباء. وقرروا عجز آلهتهم عن حماية نفسها أو إجراء الخير والضرر لها فضلًا عن تقديمه لغيرها.

ح- وللوصول إلى رتبة البلاغ فإنه لا بد من تقليب الأساليب وتنوعها فما لا يصل بالجهر قد يصل بالسر، وما لا يصل في الليل قد يصل في النهار، وما لا يستقر في القلوب مع إنشغالها قد يستقر فيها عند فراغها، وما لا يؤثر في الصحيح قد يؤثر في المريض. وفي سورة نوح تطبيق كامل لهذا المبدأ ولهذا القاعدة قال الله تعالى على لسان نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ (٦١) فَلَمْ

يَزِدُّهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ [نوح: ٥ - ١٠]. قال القرطبي: «كل هذا مبالغة في الدعاء وتلطف بالاستدعاء»^(١).

وقال ابن كثير: «نوع عليهم الدعوة لتكون أنجح»^(٢). فدعاهم بالليل حيث السكون الداعي إلى حسن الاستماع، وحيث النجوم الدالة على خالقها ومنشئها. ودعاهم بالنهار حيث العمل واللقاء والمحاورة والمناظرة. وكان شأنهم التنكر له عندما يدعوهم، ولكنه لم يتنكر لهم، بل واصل دعوتهم، وأمعنوا في التنكر فوضعوا أصابعهم في آذانهم، وتلفّعوا بثيابهم، فصاح بأعلى صوته كي يصل إلى أسماعهم، ولما ألقوا بأسماعهم أسر لهم إسرارًا. قال القرطبي: «وأسررت لهم: أتيهم في منازلهم»^(٣). وهذه التفاتة جيدة من القرطبي، إذ أن الذهاب بالمدعو بعيدًا عن أعين الناس أبلغ في التأثير، في حين أن اللقاء مع المدعو أمام أعين الناس قد يسبب حرجًا له، بالإضافة إلى أنه ينبه أعداء الإسلام الذين يضربون هذه العلاقة بمجرد معرفتهم بهذه الصلة ويحذرون المدعو، ويكون هذا قبل أن تتمكن الفكرة في نفس المدعو، فيؤدي ذلك إلى عدم الاستجابة أو يؤخرها.

ط - وللوصول إلى رتبة البلاغ فإن على الداعية أن يخاطب المدعويين باللين لا بالغلظة والشدة واللين تلطف بالمدعو ورفق به، وتخير لأحب

(١) تفسير القرطبي ١٨ / ٣٠١.

(٢) تفسير ابن كثير ٧ / ١٢٤.

(٣) تفسير القرطبي ١٨ / ٣٠٠.

الأسماء إليه، وأقرب الأساليب إلى قلبه. وليس اللين في التساهل في أحكام الشرع، ولا في مجارة أهل الباطل على باطلهم، ولا في السكوت على المنكرات. فالمؤمن على كل حال لا يخشى إلا الله، ولا يرجو إلا ثوابه.

وإذا كان الله تعالى قد أمر موسى بأن يدعو فرعون باللين، فمن باب أولى أن يكون اللين شعار كل دعوة. قال تعالى: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿طه: ٤٣ - ٤٤﴾. وأمر الله نبيه ﷺ بأن يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة.

واللين أقطع من الشدة وأقدر على إيصال الكلام إلى القلوب. وكثيراً ما يجد الداعية العقبات في طريقه بسبب كلمة قالها أو تصرف أساء فيه للمدعوين.

والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة تجعل المدعو يقف مباشرة أمام الدعوة، في حين أن الغلظة تجعل المدعو في حجاب عن الدعوة. وكما يضع أعداء الإسلام العقبات في طريق الدعوة، فقد يضع المسلم - وهو لا يعلم - عقبات أيضاً في طريقها، سببها سوء صنيعه وضجره وسأمه وقصر نظره وضيق صدره. والداعية الناجح هو الذي لا يفقد صوابه واتزانه مهما كانت الظروف.

يقول الرازي: «واعلم أن الدعوة إلى المذهب والمقالة لا بد أن تكون مبنية على حجة وبينة، والمقصود من ذكر الحجة إما تقرير ذلك المذهب أو ذلك الاعتقاد في قلوب المستمعين، وإما أن يكون المقصود إلزام الخصم وإفحامه»^(١).

(١) تفسير الرازي ٢٠/١٣٨.

والدعاة إلى الله يتتبعون إيصال الحق والهدى إلى قلوب الخلق وليسوا في حلبة مصارعة يتتبعون الظفر على خصومهم، ويريدون إثبات تفوقهم في الحجة والدليل. ويذهب الرازي إلى أن الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة هي التي تؤدي إلى كسب الأنصار، بينما تبقى المجادلة بالتي هي أحسن لإقامة الحجة على الخصوم. فقال: «ومن لطائف هذه الآية أنه قال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] فقصر الدعوة على ذكر هذين القسمين.. أما الجدل فليس من باب الدعوة، بل المقصود منه غرض آخر مغاير للدعوة، وهو الإلزام والإفحام. فلهذا السبب لم يقل: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الأحسن، بل قطع الجدل عن باب الدعوة تنبيهًا على أنه لا يحصل الدعوة وإنما الغرض منه شيء آخر»^(١)، وهو إقامة الحجة على الخصم.

(١) المصدر نفسه ٢٠/ ١٣٩-١٤٠.

القاعدة الخامسة

على الداعية أن يقدم الجهد البشري وهو يطلب المدد الرباني

شاء الله تبارك وتعالى أن تعمل هذه الدعوة بالوسائل البشرية. والداعية الحق هو الذي يستطيع أن يوظف عالم الأسباب من أجل دعوته، وهذا رسول الله ﷺ يواصل ليله بنهاره آخذًا بالأسباب، ومستخدمًا لأساليب عصره المتاحة ولم يقل: بما أنه يوحى إلي فإن لي طريقة أخرى في التماس النصر. وإنما لنجد في تفاصيل سيرته ﷺ تطبيقات واسعة لهذا المبدأ. ويوم أن خالف بعض الصحابة أمر النبي ﷺ وقصروا في الأخذ بالأسباب كانت تلك النتيجة المفجعة في معركة أحد، رغم أن الرسول ﷺ بين ظهرائهم، والوحي يتنزل عليه.

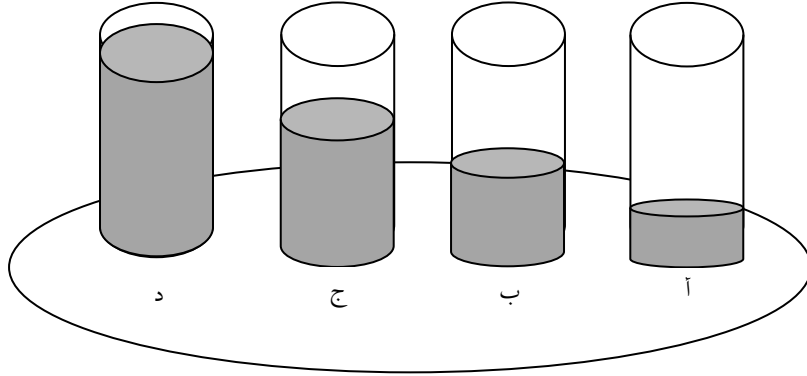
وفي قول الله تعالى: ﴿لَا يَكْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا أُوْشَعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] بيان شاف لهذا المبدأ، والتكليف هو الأمر بما يشق عليه. والتكليف هنا مرتبط بالوسع الذي هو الطاقة والجِدَّة، قال القرطبي: «نص الله تعالى على أنه لا يكلف العباد من وقت نزول الآية عبادة من أعمال القلب أو الجوارح إلا وهي في وسع المكلف وفي مقتضى إدراكه وبنيته، وفي هذا انكشفت الكربة عن المسلمين في تأويلهم أمر الخواطر»^(١) أي: لم يكلفهم الله بما في خواطر النفوس وخلجات القلوب.

(١) تفسير القرطبي ٣/ ٤٢٩.

فهم خطأ:

والناس اليوم يفهمون هذه الآية على أن الوسع هو أدنى ما يستطيعه المرء، ولذلك فإن هذا الوسع متقلب متغير حسب الدوافع. فقد يدعي المسلم أنه لا يجد سوى ساعة من فراغ، قائلاً: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ثم يزيد هذا الجهد إلى ساعتين قائلاً: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ثم نجد وقته يتسع لثلاث ساعات من العمل فيقول: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

وهذا التقلب والتغير في ظرف واحد وزمان واحد دليل على أن الادعاء الأول لم يكن صحيحاً، وأنه لم يبذل وسعه في المرة الأولى والثانية والثالثة.



ونظرة إلى الشكل أعلاه تبين أن الكؤوس أ، ب، ج، د وإن تفاوتت في مقدار سعتها من الماء إلا أن الكأس «د» هو الذي استوفى وسعه وطاقته. والدعاة في فهمهم لهذه الآية كهذه الكؤوس، يرضى أحدهم بتقديم النزر القليل ثم يطالب بالنتائج الكبار، علماً بأن مهمة الدعوة كبيرة واسعة. وما ينتظره العالم من الدعاة كبير كاتساع دعوتهم. هذا مع العلم بأن التعامل هو مع الحكيم الخبير الذي يعلم مقدورات النفوس.

ونحن لا ننسى أن الناس متفاوتون في أصل المقدرة والجهد وأن مساحات نفوسهم متفاوتة كذلك، ولكن المطلوب أن تصل هذه النفوس إلى أكبر عطاء لها، وأن يكون جهدها متزايداً متصاعداً كل يوم، وإن قدرًا كبيراً من طاقة العاملين والدعاة محكوم عليه بالهدر والضياع إن لم يُستغل في سبيل الحق والدعوة. وإن كثرة العاملين الذين يقدمون بعض ما يستطيعون يعيقون السير، وتزدحم بهم الطرق، تمامًا كالعربات التي تملأ الطريق في الوقت الذي لا تحمل من وسعها سوى الشيء القليل.

إن الله تعالى خلق هذا الإنسان وجعل في وسعه الكثير الكثير، ونحن في هذه الحياة نقرأ عن بعض المنحرفين ومدمني الإجرام، أنهم يبذلون جهداً في سبيل انحرافهم وإجرامهم ما يجعلهم يواصلون الليل بالنهار، ويقطعون شاسع المسافات، ويعانون ضروباً من التحمل والصبر ما يحير الألباب، ويبذلون من الأموال، ويركبون من الأهوال والمخاطر ما يثير العجب العجائب. والذي يستطيع فعل الشر فإنه يستطيع فعل الخير، ومن يركب المصاعب والأهوال في سبيل الباطل فإنه قادر على ذلك في سبيل الحق والخير.

الصحابة يلتزمون بمعيار الوسع:

وعندما نقرأ سير الأولين من الأصحاب - رضوان الله عليهم - نرى أن أكثرهم قد مات خارج بلده، فهذا أبو أيوب الأنصاري يرقد عند أسوار القسطنطينية، وهذه أم حرام بنت ملحان ترقد في جزيرة قبرص، وهذا عقبة بن عامر يرقد في مصر، وهذا بلال يرقد في دمشق. وهكذا فقد اندفع هؤلاء الأصحاب في أصقاع الأرض يرفعون راية الإسلام ويبذلون الغالي والنفيس

في سبيله، وهذا من منطلق إيمانهم بقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ونراهم بعد غزوة أحد لا يلبثون حتى يجيبوا داعي الله فيلحقوا بالمشركين «فقال أسيد بن حضير وبه سبع جراحات يريد أن يداويها: سمعًا وطاعة لله ولرسوله. وأخذ سلاحه ولم يعرج على دواء، ولحق برسول الله ﷺ. وخرج من بني سلمة أربعون جريحًا: بالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحًا وبخراش بن الصمّة عشر جراحات»^(١). وكان ذلك في غزوة حمراء الأسد. وهذا خير دليل على أن الإرادة القوية تبذل من الجهد ما يتحدى المصاعب والآلام، وأن الإرادة الضعيفة عاجزة حتى مع وجود الوسائل والإمكانات.

ولقد ذكر الله هؤلاء الأصحاب في قرآن يُتلى حيث قال: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

الاستطاعة والإرادة:

والجدير بالذكر أن الاستطاعة فيها جانب إرادي نفسي يدفع إليها، ويعمل على تحقيقها بإذن الله تعالى. وإذا انعدم هذا الجانب فإن المرء يصاب بالعجز. ومن هنا فإن النبي ﷺ علمنا بأن ندعو الله قائلين: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»^(٢). وقال أيضًا: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير،

(١) إمتاع الأسماع ١/ ١٦٧.

(٢) أخرجه البخاري ٨/ ٩٧، ورواه من عدة روايات، وأخرجه أحمد ٣/ ٢٣١، وأخرجه مسلم في باب الذكر ٤٩-٥١.

أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»^(١). وإن الشعور بالعجز وعدم الاستطاعة الذي يتردد على ألسنة الدعاة، وقد يفعلون ذلك ويقولونه من باب التواضع، ليعمل على هدر الطاقات الإسلامية وتأخير ركب الدعوة. وما لم يزوج الداعية نفسه في غمار دعوته بدون خوف من الفشل، غير عابئ بما يوجه له من النقد، فإنه لن يتقدم ولن يصل إلى دفة التوجيه والتغيير.

حدود الوسع ومعياره:

وقد يسأل سائل: وما حدود الوسع والطاقة؟

والجواب على ذلك تضمنته الآيات القرآنية الكريمة التالية:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٠].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تَجَرَّةٍ تَنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ الْبَرِّ ۖ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١٠ - ١١].

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١].

ومعنى قوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي سواء كنتم على الصفة التي يخفّ عليكم الجهاد، أو على الصفة التي يثقل، وهذا الوصف يدخل تحته

(١) أخرجه مسلم ٤/ ٢٠٥٢، وابن ماجه ١/ ٣١، وأحمد في المسند ٢/ ٣٦٦، ٣٧٠.

أقسام كثيرة:

فالأولى: خفافاً في النفور لنشاطكم، وثقالاً عنه لمشقته عليكم.

والثاني: خفافاً لقلّة عيالكُم وثقالاً لكثرتهم.

والثالث: خفافاً من السلاح وثقالاً منه.

والرابع: ركبناً ومشاة.

والخامس: شباباً وشيوخاً.

والسادس: مهازِيلَ وسماناً.

والسابع: صحاحاً ومرضى.

والصحيح ما ذكرناه إذ الكل داخل فيه، لأن الوصف المذكور وصف

كلي^(١).

وقد فهم كثير من الصحابة والتابعين هذه الآية على إطلاقها، قال مجاهد:

إن أبا أيوب شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ ولم يتخلف عن غزوات المسلمين.

ويقول: قال الله: ﴿أَيُّفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فلا أجديني إلا خفيفاً أو ثقيلاً.

وعن صفوان بن عمرو قال: كنت والياً على حمص فلقيت شيخاً قد

سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو، قلت: يا عم؛ أنت

معذور عند الله، فرفع حاجبيه وقال: يا ابن أخي، استنفرنا الله خفافاً وثقالاً،

ألا إن من أحبه الله ابتلاه.

وعن الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو، وقد ذهبت إحدى

(١) تفسير الرازي، ٧٠ / ١٦.

عينيه، ف قيل له: إنك عليل صاحب ضرر، فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن عجزت عن الجهاد كثرت السواد، وحفظت المتاع. وقيل للمقداد بن الأسود وهو يريد الغزو: أنت معذور، فقال: أنزل الله علينا في سورة براءة: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾^(١).

الدعوة نُفْرة في سبيل الله:

والنفور في سبيل الله لا يعني صورة واحدة، وهي صورة القتال، بل هو أعم من هذا، والدعوة إلى الله تعالى بجميع أشكالها هي نفرة في سبيل الله. ولذلك فقد جاء في سورة التوبة نفسها ما يشعر بهذا، وهو قول الله تعالى: ﴿قُلْ لَا فِرَاقَ مِنَّا فِرْقَةً مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّتَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

قال الرازي: كان الواجب انقسام أصحاب رسول الله ﷺ إلى قسمين، أحد القسمين ينفرون إلى الغزو والجهاد، والثاني يكونون مقيمين بحضرة الرسول ﷺ، فالطائفة النافرة إلى الغزوة يكونون نائبين عن المقيمين في الغزوة، والطائفة المقيمة يكونون نائبين عن النافرين في التفقه، وبهذا الطريق يتم أمر الدين بهاتين الطائفتين^(٢). ونلاحظ في الآية الربط بين النُفْرة للتفقه والنُفْرة للإنذار.

وبناء عليه فإن المسلم مطالب ببذل قصارى جهده، ومسؤول عن تكليف نفسه وسعها من أجل نصرته هذا الإسلام بصور الجهاد المتنوعة، وأولها الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وإذا كان الإسلام لا يطالب الضير

(١) تفسير الرازي ١٦ / ٧٠.

(٢) تفسير الرازي: ١٦ / ٢٢٥.

بتقديم ما يستطيعه البصير؛ فإن الضرير والبصير كلاهما حسب استطاعته مطالب بتقديم الاستطاعة بمقتضى الآية الكريمة: ﴿أَفِرُّوْاْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

والمؤمن يعلم بأن كل جهد يبذله في مجال التقوى فإنما هو جهد يقاس بإمكانياته البشرية الضعيفة ولا يصل هذا الجهد إلى الدرجة التي تليق بجلال الله سبحانه وتعالى، ومن هنا فهم بعض المفسرين الآية الكريمة: ﴿أَتَقُوْاْ اللّٰهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] على أنها منسوخة بقول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُواْ اللّٰهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] محتجين بما ورد من سبب النزول؛ أنه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين؛ لأن حق تقاته أن يطاع فلا يُعصى طرفه عين، وأن يُشكر فلا يُكفر، وأن يُذكر فلا يُنسى، والعباد لا طاقة لهم بذلك.

وخير من النسخ أن يُقال: والله أعلم، هناك معياران للتقوى:

معيار يليق بالمعبود سبحانه، وهو معيار مطلق.

ومعيار يتناسب مع استطاعة العبد، فهو معيار شخصي يختلف من شخص إلى آخر، ومن حال إلى حال.

وهذان الحدان والمعياران يكون المؤمن بينهما في صعود باتجاه ما يليق بجلال الله تعالى: فعلى المسلم أن يكون يومه خيرًا من أمسه. وغده خيرًا من يومه. وعليه أن يزداد في مدارج التقوى كلما ازداد علمًا، أو حلت به نعمة، أو تقدم به السن.

وإذا أدرك المؤمن هذا المفهوم فإنه يخشى أن لا يكون قد بذل استطاعته، ويحتاط لذلك دائمًا، فلا يرضى عن عمله ولا عن بذله ولا عن جهده، خشية أن يكون قد قصّر في المطلوب. وهذا شأن المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ بِإِثْمِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝﴾

وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦٢].

إشفاق ووجل:

وقد ذكرت هذه الآيات صفات للمؤمنين: منها الإشفاق والوجل «والإشفاق يتضمن الخشية مع زيادة رقة وضعف»^(١)، قال الرازي وزاد: «ومنهم من حمل الإشفاق على أثره، وهو الدوام في الطاعة، والمعنى: الذين هم من خشية ربهم دائمون في طاعته، جادون في طلب مرضاته، والتحقيق أن من بلغ في الخشية إلى حد الإشفاق، وهو كمال الخشية، كان في نهاية الخوف من سخط الله عاجلاً، ومن عقابه آجلاً، فكان في نهاية الاحتراز عن المعاصي»^(٢). ومن كان كذلك فإنه يستجيب لأمر الله في الدعوة إليه والصدع بأمره ونهيه. وأما كونهم يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة «معناه: يعطون ما أعطوا، فدخل فيه كل حق يلزم إيتاؤه.. لأن من يُقدم على العبادة وهو وجل من تقصيره وإخلاله بنقصان أو غيره، فإنه يكون لأجل ذلك الوجل مجتهداً في أن يوفيهما حقها»^(٣).

والخوف من التقصير مع كون الخائف يبذل قصارى جهده في الاتقاء منزلة من منازل الصديقين، وقد بين الله تعالى أن سبب هذا الوجل علمهم

(١) تفسير الرازي ٢٣/١٠٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه ٢٣/١٠٧.

بأنهم إلى ربهم راجعون.

فيا لها من صفات سامية تحمل أصحابها إلى المقامات العلية، وتجعل نفوسهم نقية من الرياء والسمعة، وتشحذ الهمم إلى أحسن العمل.

وبعد هذه التوجيهات الدافعة إلى رفع الكفاءة والمقدرة تأتي الآية الكريمة: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢] ويبدو التكامل بين إعطاء الفرد مسؤولية تقدير الاستطاعة وبين ما يعلمه الله تعالى من حقيقة الاستطاعة التي يراقبها ويحاسب عليها. وبلوغ الداعية درجة الخشية والإشفاق حافز على الصدق في تقدير الوسع.

القاعدة السادسة

الداعية مرآة دعوته والنموذج المعبر عنها

لا ينفصل الداعية عن دعوته. والاقتران بين الداعية والدعوة قائم في أذهان الناس. والداعية نفسه شهادة للدعوة، وهذه الشهادة قد تكون شهادة صادقة تحمل الناس على قبول الدعوة من صاحبها، وقد تكون كاذبة تحملهم على ردها ورفضها. والذين يتعاملون مع المبادئ مباشرة قلة قليلة في كل عصر ومكان، وأما أكثر الناس فيتعاملون مع حملة المبادئ والناطقين باسمها.

وكلما كان المبدأ عظيمًا وقويًا كان التزامه أشد، وكان الوصول فيه إلى المطلوب أشق. والإسلام فيه من الواجبات والتكاليف ما يجعل المجاهدة في سبيل بلوغ مقاماته دائمة لا تفر، متصلة لا تنقطع.

وعندما يكون الداعية بعيدًا عن الالتزام بواجبات الإسلام وتكاليفه فإنه يكون فتنة للناس، يصرفهم بسلوكه عن دين الله، ويقطع الطريق على الناس، فمثله كمثل قاطع الطريق، بل هو أسوأ، وينبغي على الداعية أن يدعو دائمًا بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥]. وقد ذكر في تفسير هذه الآية: «لا تمكنهم من أن يحملونا بالظلم والقهر على أن ننصرف عن هذا الدين الحق الذي قبلناه»^(١). وكذلك فإن الكافرين عندما يتسلطون على

(١) تفسير الرازي ١٧/١٤٦.

المسلمين فإن تسلطهم شبهة لهم في أنهم على الحق، وأن المسلمين على الباطل^(١) فيكون تسلطهم على المسلمين واستضعافهم للمؤمنين فتنة تصرف الكافرين عن الإيمان.

ويُضم إلى هذه المعاني أن يروا سلوك الداعية مخالفاً للإسلام، فيصرفهم هذا السلوك عن الإيمان، قائلين لو كان هذا الدين هو الحق لظهرت أحقيته على قسّمات أتباعه وتصرفاتهم.

نماذج صادقة:

وقد كان أصحاب النبي ﷺ نماذج صادقة لدعوتهم وإسلامهم. يقول الحسن البصري في صفتهم: «ظهرت منهم علامات الخير في السيماء والسمت والهدى والصدق، وخشونة ملابسهم بالاقتصاد وممشاهم بالتواضع، ومنطقهم بالعمل. ومطعمهم ومشربهم بالطيب من الرزق، وخضوعهم بالطاعة لربهم تعالى، واستقادتهم للحق فيما أحبوا وكرهوا، وإعطاؤهم الحق من أنفسهم، ظمئت هواجرهم ونحلت أجسامهم، واستخفوا بسخط المخلوقين رضىً للخالق، شغلوا الألسن بالذكر، بذلوا دماءهم حين استنصرهم، وبذلوا أموالهم حين استقرضهم، حسنت أخلاقهم، وهانت مؤنتهم»^(٢).

ولقد أعطى الصحابة عن هذا الدين صورة مشرفة للجنس البشري، فثبتوا أمام الابتلاء والمحن تاركين من الرخص ما يمكن أن يكون سبب فتنة لغير المؤمنين.

فهذا عبد الله بن حذافة السهمي صاحب رسول الله ﷺ يقع في أسر الروم

(١) تفسير القرطبي ٨ / ٣٧٠.

(٢) حلية الأولياء ٢ / ١٥٠.

«فقال له ملك الروم: تنصر أشركك في ملكي، فأبى، فأمر به فصلب، ثم أمر برميهِ بالسهم فلم يجزع، فأنزل، وأمر بقدر فُصِبَ فيها الماء، وأُغلي عليه وأمر بإلقاء أسير فيها فإذا عظامه تلوح، فأمر بإلقائه إذا لم يتنصر، فلما ذهبوا به بكى، قال: ردوه، فقال لم بكيت؟ قال: تمنيت أن لي مائة نفس، تُلقى هكذا في الله، فعجب ملك الروم»^(١).

وعندما رأى سكان البلاد المفتوحة صدق هؤلاء الأصحاب وثباتهم على عقيدتهم، وتمثلهم لمنهج دينهم، أقبلوا على الإسلام. قال ابن قيم الجوزية: «ولهذا لما رأى النصارى الصحابة، وما هم عليه، آمن أكثرهم اختياراً وطوعاً، وقالوا: ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء». ثم يقول ابن قيم الجوزية: «ولقد دعونا، نحن وغيرنا كثيراً من أهل الكتاب إلى الإسلام فأخبروا أن المانع لهم ما يرون عليه المنتسبين إلى الإسلام». وكلام ابن القيم هذا في القرن الثامن الهجري؛ فكيف لو كان يعيش في عصرنا هذا، حيث يعطى المسلم صورة عكسية للإسلامة وتعاليمه.

والداعية قد يكون معروفاً عند الناس وقد يكون مجهولاً. فإذا شرع في الدعوة وكان معروفاً بالاستقامة والورع، فإن كلامه يصل إلى مجامع القلوب، وكانت استقامته وورعه مقدمة القبول والحافز عليها.

وإذا كان الداعية فقيراً في التزامه واتباعه فإن كلامه يمر فوق الرؤوس كالسهم الطائش الذي لا يصيب الهدف.

خير من القول فاعله:

يقول الماوردي في أدب الدنيا والدين: «وقال علي بن أبي طالب: إنما

(١) الإصابة ٢/ ٢٨٨.

زهد الناس في طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع مَنْ عَلمَ بما عَلمَ.. وكان يقال خيرُ من القول فاعله، وخير من الصواب قائله، وخير من العلم حائله. وقال بعض الصلحاء: العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل..

وقال بعض البلغاء: من تمام العلم استعماله، ومن تمام العمل استقلاله^(١). وإذا كان الداعية مجهولاً عند مستمعيه فإن كلامه يبقى معلقاً لا هو بالمقبول ولا هو بالمردود حتى يسألوا عنه، فإن عرفوا منه الاستقامة والاتباع وقع المعلق من كلامه موقع القبول والتأثير. وإلا فإن كلامه يخرج من اعتبارهم.

وحياة الداعية الخاصة والعامة موضوع الملاحظة، وعين الناس عليه كالمجهر المكبر، وقبل أن يطالب الناس بترك الغيبة فعليه أن يدفع الغيبة والتهمة عن نفسه وأن يصون حياته الخاصة والعامة عن كل ما يشينها.

(١) أدب الدنيا والدين ٨٥ واستقلاله أن يجده قليلاً.

القاعدة السابعة

خاطبوا الناس على قدر عقولهم

الدعوة إلى الله تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة. وتظهر الحكمة في معرفة المناسب من الدعوة لكل فئة من الناس. والداعية الحكيم لا يقول كل ما يعرف لكل من يعرف. وهو يتعامل مع العقول حسب مقدرتها لا حسب مقدرته، ولا يحملها فوق طاقتها. وقد فهم ابن عباس، رضي الله عنهما، قول الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ﴾ [آل عمران: ٧٩] فقال: «كونوا حلما وفقهاء»، وقال البخاري: «ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره»^(١).

والبدء بصغار العلم مرجعه مراعاة العقول حتى لا تنفر من الدعوة. قال ابن حجر: «والمراد بصغار العلم ما وضح من مسائله، وبكباره ما دق منها»^(٢). ويشهد لهذا الأصل من أصول الدعوة كثير من النصوص نذكر منها:

ساق البخاري حديثاً ترجم له بقوله: «باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصّر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه». ثم أخرج من طريقه إلى الأسود قال: «قال لي ابن الزبير: كانت عائشة تُسرّ إليك كثيراً، فما حدثتك في الكعبة؟ قلت: قالت لي: قال النبي ﷺ: يا عائشة، لولا قومك حديث

(١) صحيح البخاري متن فتح الباري ١/ ١٦٠.

(٢) فتح الباري ١/ ١٦٢.

عهدهم - قال ابن الزبير: بكفر - لنقضت الكعبة، فجعلت لها بابين، باب يدخل الناس، وباب يخرجون^(١).

قال ابن حجر، رحمه الله: «ويستفاد منه ترك المصلحة لأمن الوقوع في المفسدة»^(٢).

وقال البخاري رحمه الله: «باب من خصَّ بالعلم قومًا دون قوم، كراهية أن لا يفهموا، وقال علي: حدّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله»^(٣). قال ابن حجر، رحمه الله: «ومن كره التحديث ببعض دون بعض»^(٤) أحمد ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة في الجرايين^(٥)، وأنه كره أن يحدث بأحدهما، ونحوه عن حذيفة، وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين؛ لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمد منه من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي»^(٦)، وقصة العرنيين هي قصة قوم من عرينة قدموا على النبي ﷺ فاجتروا المدينة، أي لم يناسبهم جوّها، فأعطاهم النبي ﷺ إبلًا من إبل الصدقة يشربون ألبانها، ويستشفون بأبوالها، فقتلوا الرعاة واستاقوا الإبل، فلحق بهم النبي ﷺ ففقطع أيديهم وأرجلهم، وتركهم عطشى في الحرّة.

(١) صحيح البخاري متن فتح الباري ١/ ٢٢٤.

(٢) فتح الباري ١/ ٢٢٥.

(٣) صحيح البخاري متن فتح الباري ١/ ٢٢٥.

(٤) أي كره التحديث ببعض الأحاديث التي لا يفهمها العامة دون تلك التي تفهم.

(٥) الحديث أخرجه البخاري ١/ ٢١٦ (فتح الباري) وهو قول أبي هريرة: «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين فأما أحدهما فبثته، وأما الآخر فلو بثته لقطع هذا البلعوم» والمقصود به أحاديث الفتن.

(٦) فتح الباري ١/ ٢٢٥.

ويلاحظ أن تحديث الحجاج بهذا يحمله على المبالغة في سفك الدماء، كما قال ابن حجر.

أخرج الإمام مسلم بسنده إلى ابن مسعود قوله: «ما أنت محدثاً قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»^(١).

وأخرج البخاري: أن النبي ﷺ قال: «يا معاذ بن جبل» قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «يا معاذ» قال: لبيك يا رسول الله وسعديك - ثلاثاً - قال: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله من قلبه إلا حرمه الله على النار» قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشرون؟ قال: «إذا يتكلموا» وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً^(٢).

وذلك لأن هذا الحديث إذا سمعه الناس فإنهم يحملونه على محمل خطأ، وهو ترك العمل والاكتفاء بالإقرار، ومعنى أنه أخبر به تأثماً أي: أخبر به قبل موته مخافة الإثم حتى يبقى الحديث ولا ينقطع بوفاة معاذ رضي الله عنه.

والناس أمام هذا الأصل أصناف:

الصنف الأول: العوام غير المتعلمين، والتعامل معهم ودعوتهم في غاية الصعوبة. وحالهم كحال المبتدئ في تعلم القراءة والكتابة، وكل صعوبة أو تعقيد قد يصرفهم عن الدعوة. وهؤلاء لا تلقى عليهم المسائل العويصة، ولا التفاصيل الدقيقة، والبراهين المعقدة والنظم المتشعبة، وهذا الصنف يحتاج إلى المتخصص في فن دعوتهم ومخاطبتهم. وهؤلاء يعتمدون على

(١) فتح الباري ١/ ٢٢٥.

(٢) صحيح البخاري (متن فتح البخاري) ١/ ٢٢٦.

المحسوس أكثر مما يعتمدون على المجرد، وحاجاتهم الخاصة وظروف حياتهم أقرب الوسائل إلى قلوبهم. والأمثلة المنتزعة من بيئتهم الخاصة هي الأمثلة المفهومة. وهؤلاء تحركهم العاطفة أكثر مما يحركهم العقل. وللترغيب والترهيب في نفوسهم أثر كبير. ومما يشحذ همهم قصص الصالحين، وأخبار الأولياء، وأحداث السيرة، على طريق السرد على على طريق التحليل.

الصنف الثاني: المتعلمون من خريجي الجامعات، ومن في مستواهم في التقدم المعرفي، وهؤلاء يبحثون عن التحليل والاستنتاج والمعاني ودلائل الإعجاز، وعند مخاطبتهم فإنه لا بد من مراعاة منزلتهم العلمية. ومن يستطيع مخاطبة العوام قد لا يستطيع مخاطبة الخواص. وإذا خاطبهم من هو دونهم فقد يفتنهم.

الصنف الثالث: أصحاب التخصصات العلمية، إذ لكل تخصص مصطلحاته ووسائله، ومن يتعرف على هذا المناخ الخاص فإنه أقدر على توجيهه ولفت نظر أصحابه إلى الدلائل مما بين أيديهم. فالداعية بين المحامين يحتاج إلى معرفة شيء عن القوانين والصالح والطالح منها وأما بين الأطباء فهو بحاجة لمعرفة بعض الجوانب التي تُوقف الطبيب على عظمة الله وقدرته في خلق الإنسان ووظائف أعضائه. وإذا كان الداعية من أهل الاختصاص المزودين بالعلم الشرعي فإن المردود يكون أعظم. ولذا فإن على الداعية صاحب العلم الشرعي أن يأخذ نفسه بالثقیف، وأن ينوع معارفه، وإذا كلف بالدعوة في قطاع متخصص فالأجدر به أن يدرس هذا القطاع، وأن يزداد معرفة بهذا الجانب الثقافي.

القاعدة الثامنة

الابتلاء سنة الله تعالى وهو السبيل لتمثل الدعوة

وصياغة النفس وفق العقيدة

كلما كان العمل شاقاً ودقيقاً ومعقداً احتاج المرء فيه إلى بذل جهد أكبر في الاعداد والتدريب لكي يكون على مستوى ذلك العمل. والعمل لدين الله تعالى مستمر متنوع فسيح. ومهمته لا تقف عند حدود أشكال معينة، بل تتعدى الشكل إلى المضمون والمحتوى. ومسئولية العامل تزداد يوماً بعد يوم. ومسئوليته بعد انتصار فكرته أعظم منها قبل ذلك.

من أجل ذلك وغيره شاءت إرادة الله سبحانه أن يخضع الدعاة لصنوف من الاختبارات الشاقة. ولا تصل الجماعة المؤمنة إلى تحقيق أهدافها إلا مروراً بهذه الابتلاءات.

ومن خلال الآيات الكريمة والأحاديث النبوية فإننا نتبين وظائف الابتلاء ونتائجه:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز، لا تهتز حتى تُستحصد»^(١). وهذا الحديث يكشف عن وظيفة

(١) أخرجه مسلم ٤/ ٢١٦٢.

الابتلاء البنائية بالنسبة للجماعة المسلمة، فإن تعرض الزرع للحركة الدائمة يكسبه قدرة على الثبات أمام الأعاصير، في حين أن الأرزة التي لا تحركها الرياح العادية فإنها لا تقف أمام الأعاصير والرياح الشديدة، فإنها تتحطم. وكذلك الدعاة فإن لديهم قوة احتمال على مواجهة الصعاب لكثرة إجراء الابتلاء عليهم.

والابتلاء يعمل على اصطفاء العناصر القوية الصالحة، فلا يدخل في العمل من يكون عبئاً على العاملين، وإنما يأتي إلى الدعوة ويثبت عليها من تمكن الإيمان في قلبه، ومن يبتغي وجه الله والدار الآخرة، لأن المرء إذا علم أن المغارم أكثر من المغانم فإنه لا يختار المغارم إلا إذا رضي بالآجلة عوضاً عن العاجلة.

والابتلاء يكشف عن صدق الصادقين وحقيقة انتسابهم للإيمان، وهذا ما تضمنته آيات من سورة آل عمران وهي تُعَقَّبُ عَلَى مَا أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أَحَدٍ: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُذَوُّهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، يقول الرازي في تفسيره: «واعلم أنه ليس المراد من هذه المداولة أن الله تعالى ينصر الكافرين، لأن نصره الله منصب شريف وإعزاز عظيم فلا يليق بالكافر، بل المراد من هذه المداولة أنه تارة يشدد المحنة على الكفار، وأخرى على المؤمنين، وذلك من وجوه:

الأول: أنه تعالى لو شدد المحنة على الكفار في جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات لحصل العلم الاضطراري بأن الإيمان حق وما سواه باطل، ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب، فلهذا تارة يسلط المحنة على أهل الإيمان، وأخرى على أهل الكفر.

الثاني: أن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصي، فيكون عند الله تشديد المحنة عليه في الدنيا أدباً له^(١).

الثالث: والابتلاء يعمق الهوة بين المؤمنين والكافرين، فلا يعود اللقاء ممكناً؛ لأن ممارسات الكافرين في إيقاع الأذى بالمؤمنين، وحرص الكافرين على استئصال الإيمان وجنده، كل هذا يجعل المعركة دائمة مستمرة لا تنتهي إلا بخضوع الكفار لأحكام الإسلام. ولو ظهر لين الكفار مع المؤمنين، وسمح الكفار للمؤمنين بأن يدعوا للإسلام كما يشاؤون لقال ضعاف الإيمان: إن الكفر ليس بتلك الصفة البالغة في السوء. ومن هنا جاء البيان الإلهي لهذا الموقف المبدئي الدائم: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

الرابع: والابتلاء يربط بين المؤمنين بعضهم ببعض برباط عقلي وعاطفي، إذ بالابتلاء تصل عقول المؤمنين إلى حقيقة البناء الإسلامي المتراس، وأن الابتلاء يعطي هذا البناء قوة وصلابة. وإن الذين يتلون من أجل إيمانهم إنما يسهمون بأعز ما يملكون من النفس والمال والأهل والأوطان. وأمّا ما يحققه الابتلاء من الرباط العاطفي فإن الألم أدعى إلى تحقيق المشاركة والتعاون، وقد ينسى المرء من شاركه في مناسبة سعيدة هنيئة، ولكنه لن ينسى من شاركه في الألم والمعاناة.

الخامس: والابتلاء يقدم الدليل القوي على جدارة الدعوة بالقيادة؛ ومن هنا فإن كثيرين أقبلوا على الدعوة عندما رأوا ثبات أهلها واصطبارهم على

(١) تفسير الرازي ٩/ ١٥.

تحمل الابتلاء الذي لا تثبت له الجبال الراسيات. وتحمل الابتلاء شهادة يدلى بها المُبتلى أمام الناس، وما زال قول الصحابي الجليل خبيب ابن عدي، رضي الله عنه، يملأ الأسماع، عندما قال: ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

يقول الرازي: «ومن المعلوم أن التبع إذا عرفوا أن المتبوع في أعظم المحن بسبب المذهب الذي ينصره، ثم رأوه مع ذلك مصرّاً على ذلك المذهب، كان ذلك أدعى لهم إلى اتباعه مما إذا رأوه مُرفَّه الحال لا كلفة عليه في هذا المذهب»^(١).

السادس: إذا علم المؤمن أنه سيبتلى فإنه يبقى دائماً على حذر وخوف من الله، وهذا يدعوّه إلى إحسان العمل، والحرص على توافر شروط النصر، والبعد عن أسباب الهزيمة من المعصية والعجز والتواكل.

السابع: والابتلاء يحقق الإخلاص في نفس المؤمن. قال الرازي: «إن إخلاص الإنسان في حال البلاء ورجوعه إلى الله تعالى أكثر من إخلاصه حال إقبال الدنيا عليه»^(٢).

وقد أخبر الله تعالى عن هذه السُنَّة مع المؤمنين عندما قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٦].

(١) تفسير الرازي ٤ / ١٥٠.

(٢) المصدر نفسه.

القاعدة التاسعة

مجال الدعوة واسع فليتخير الداعية لدعوته

عندما تكون الدعوة في طور التأسيس والتكوين فإن الجهد المبذول قد يقع في مكانه المناسب إذا راعى الداعية مبدأ التخيّر لدعوته.

فليبدأ بالقرب قبل البعيد، فإنه لا داعي لقطع المسافات من أجل دعوة إنسان ما، لاسيما إذ كان لا على التعيين، في حين أن الأقربين والمجاورين في السكنى أو العمل محتاجون لمثل هذه الدعوة، وهؤلاء الأقربون معروفون عند الداعية، ولا يحتاج إلى جمع المعلومات عنهم، وهم يعرفونه فلا داعي لكثير من المقدمات. وهم يعتبون عليه إذا أهملهم وذهب إلى الأبعدين. وهو يعيش بينهم، فهم العين الساهرة في الخير والشر، وهم الشهداء على السراء والضراء، وهو عند الله مسؤول عنهم فقد أخذ النبي ﷺ على قوم أنهم لا يفقهون جيرانهم ولا يُعلّمونهم فتوعدهم بالعقوبة، وأمهّلهم سنة للقيام بهذا التكليف^(١). وعندما بدأ رسول الله ﷺ بالدعوة أمره الله تعالى أن ينذر عشيرته الأقربين، فقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. قال الرازي: «ثم أمره بدعوة الأقرب فالأقرب، ذلك لأنه إذا تشدد على نفسه أولاً ثم على الأقرب فالأقرب ثانياً، لم يكن لأحد فيه مطعن البتة، وكان قوله أنفع وكلامه

(١) مجمع الزوائد ١/ ١٦٤.

أنجع»^(١). أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: «لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ الصفا فجعل ينادي: يا بني فُهر، يا بني عدي، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو. فجاء أبو لهب وقريش، فقال: رأيتمكم لو أخبرتمكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»^(٢).

وفي رواية أخرى للبخاري، عن أبي هريرة، قال ﷺ: «يا معشر قريش، أو كلمة نحوه - اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً»^(٣).

يقول ابن حجر: «والسر في الأمر بإنذار الأقربين أن الحجة إذا قامت عليهم تعدتهم إلى غيرهم، وإلا كانوا علة للأبعدين في الامتناع»^(٤).

وليبدأ بالصغير قبل الكبير: وذلك لأن الصغير لم يصلب عوده على فكر معين أو سلوك معين، والتعامل معه أسهل من التعامل مع الكبير الذي اختار طريقه، وكثرت ارتباطاته ومسؤولياته، وحقق مركزاً اجتماعياً أو مكاسب

(١) تفسير الرازي الآية: ١٧٢/٢٤.

(٢) أخرج البخاري (فتح الباري) ٥٠١/٨ ومسلم في صحيحه ١/١٩٣.

(٣) أخرجه البخاري (فتح الباري) ٥٠١/٨، ومسلم ١/١٩٢.

(٤) فتح الباري ٥٠٣/٨.

دنيوية يخشى عليها. ثم إن الصغير الذي يُقبل على الدعوة يدخل مباشرة في الصياغة والتكوين، ولا يبذل الداعية معه وقتاً طويلاً في تخليته من الشوائب والعادات الجاهلية، وإنما ينصرف إلى تحليته وتعبئته بالفضائل والعادات الإسلامية. والصغار هم الذرية الذين من طبيعتهم أن يكونوا أتباع الرسل والدعوات. ففي قصة موسى عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿فَمَاءٌ آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣]. ولا أعني بقولي هذا إهمال الكبار، وإنما أعني أن إقبال الصغار والناشئة على الدعوة أسرع، وإن صغير اليوم هو رجل الغد، والناشئة هم مستقبل الأمة.

وليبدأ بالمتواضع قبل المتكبر، لأن التواضع يدل على إمكان قبول الحق، في حين أن التكبر يدل على سفه الحق وغمط الناس. ومن هنا وجدنا أتباع الرسل هم من فئة الشاكر المتواضع أو الفقير الصابر الضعيف. والجهد مع هذا الصنف من الناس يؤدي ثماره في الغالب، ولا يعني هذا حرمان الأصناف الأخرى من الدعوة.

إن كسب المواقع الجديدة القريبة السهلة الممكنة يساعد على كسب المواقع البعيدة الصعبة، لأن الانتشار الواسع يعطي الدعوة دماء جديدة وحيوية وطاقة تصرف في الوصول إلى المواقع الأبعد، ثم إن الفكرة عندما تشيع ويكثر انصارها فإن كثيرين يراجعون موقفهم منها على ضوء ذلك.

وليبدأ بالمتقف قبل الأمي، وذلك للدور الذي يقوم به المثقف في المجتمع، إلى جانب أن المثقف أقدر من غيره على محاكمة الآراء واختيار الأفكار. ومن يختار الفكرة عن وعي فإنه في الغالب يلتزم بها، ثم إن المثقفين هم موضع الاختلاف بين أصحاب المذاهب، والمادة المتنازع عليها بينهم.

وليبدأ بغير المتممي قبل المتممي، لأن غير المتممي يقع في مركز وسط بين المذاهب والتجمعات، وأما المتممي فقد انتقل من المركز إلى الطرف الآخر. والجهد المطلوب لنقله إلى مركز التأثير أضعاف الجهد المطلوب لغير المتممي؛ علماً بأن المتممي إذا غير انتماءه عن قناعة وفكر فإنه سيتحول إلى الدعوة مع خبرة واسعة واستعدادات كبيرة، ولكن هذا قليل.

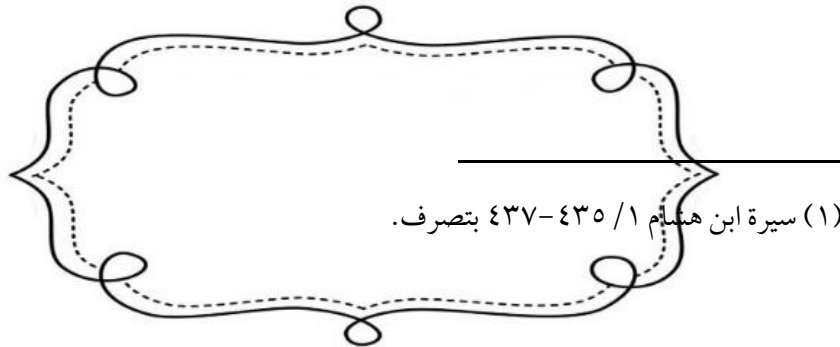
وليبدأ بزميله في العمل أو المهنة قبل غيره؛ لأن أفراد كل مهنة بينهم تعاون تلقائي، ومجالات الحديث بينهم مهياً، ونقاط الاشتراك كثيرة. فالطبيب مع الأطباء أقدر منه بين المهندسين، والمحامي بين المحامين أقوى منه بين المعلمين. ولما كان الداعية يمتاز بنظافة السلوك، وهذا متوقع - وبالبعد عن روح التنافس الدنيوي فإنه مؤهل للاتصال بزملائه والتأثير فيهم.

والمفروض أن يراعى التخير وفقاً للمرحلة التي تمر فيها الدعوة، فقد تكون المرحلة مرحلة تجميع وسعة انتشار، وقد تكون المرحلة مرحلة عمل محدد، تربوي أو اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي. وفي كل مرحلة تُراعى مقتضياتها، ويكون التخير وفق هذه المقتضيات، وقد نفهم قول النبي ﷺ: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب»^(١) على ضوء المرحلة التي كانت تمر فيها الدعوة في مكة فقد انتشرت الدعوة بين الضعفاء والفقراء ووصلت إلى مرحلة تريد أن تعلن فيها عن نفسها، وشخصية كشخصية عمر تناسب المرحلة الجديدة، وهذا ما حدث يوم أن دخل عمر رضي الله عنه في دين الله، فقد دخلت الدعوة طوراً جديداً هو طور العلن بعد السر.

(١) أخرج الترمذي ٥/٦١٧.

وعندما ذهب مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى المدينة جاءه أُسيد بن حُضير وكان مشرَّكًا فقال لمصعب ولأُسعد بن زُرارة ما جاء بكما إلينا: تسفهان ضعفاءنا؟ وكان أسعد قد قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه، فدعاه مصعب إلى الله تعالى، وقرأ عليه القرآن، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالوا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي. فقام فاغتسل، وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلًا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن: سعد بن معاذ. ولما أقبل سعد عليهما، قال أسعد بن زُرارة: أي مصعب، جاءك والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان. ولما عرض عليه مصعب الإسلام أسلم، ثم انطلق إلى قومه بني عبد الأشهل فقال: كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا، وأوصلنا، وأفضلنا رأيًا، وأيمتنا نقيية، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله، قالوا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة^(١).

ونستفيد من هذه الحادثة أمرًا مهمًا، وهو أن توجيه الدعوة إلى بعض مراكز القوة في المجتمع يُسهل في الإسراع في عملية التغيير، وقد يغير كثيرًا في المعادلة لصالح الدعوة. ونستفيد منها أيضًا مراعاة المرحلية في الدعوة.



القاعدة العاشرة

الزمن عنصر فعال من عناصر الدعوة

كثيرًا ما يشعر الدعاة بخيبة الأمل عندما يدعون إلى الله، ويستعملون الحجج والبراهين، ولكن لا يجدون استجابة كبيرة من المدعوين. وهذا الشعور بالخيبة ناشئ عن إسقاطهم لعنصر مهم من عناصر معادلة الدعوة وهو عنصر الزمن.

أول ما يجب أن نعلمه أن الواقع الذي نتعامل معه واقع غير إسلامي، وأنه تشكل بفعل عوامل كثيرة، معظمها نشأ بفعل مؤثرات مادية إحادية أو فاسدة، وقد سيطر هذا الواقع على أفراد المجتمع، وأصبح الداعية يتعامل مع الفرد القابع تحت هذه التراكمات الفكرية والسلوكية، التي هي بمثابة الحجاب المانع من الاتصال بين الداعية والمدعو، وبعبارة أخرى فإن الداعية في عالم، والمدعو في عالم آخر. والمدعو صاحب قيم غير القيم التي ينادي بها الداعية، ولهذا كله فإن توقع الاستجابة السريعة في غير محله، وهو مخالف لطبائع الأشياء.

إن أية كلمة يقولها الداعية لا تذهب هباءً منثورًا، وإنما تدخل في مكونات المدعو، ويختزنها عقله وتتراكم خبراته الخيرة، وقد يظهر أثر كلمة قيلت قبل سنوات بفعل موقف محرك أدى إلى استرجاع تلك الخبرة، ثم إن ما يقوله الداعية اليوم يجده داعية آخر رصيدًا بعد سنين. وكثيرًا ما يحدث أنه عندما نتحدث مع إنسان ما يقول: هذا شيء سمعته من فلان.

وإن اختيار زمن الدعوة أمر في غاية الأهمية، وهناك أوقات يخلو المرء فيها مع نفسه، ولا يكون مستعداً فيها لتقبل الأفكار. وإن الدعوة تتأثر بالجو العام والظرف الذي يمر فيه الداعية والمدعو، ولهذا فإن على الداعية أن يختار أنسب الأوقات التي لا إحراج فيها ولا مشقة. يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السامة علينا»^(١).

ولا ينبغي أن يطيل الداعية على المدعو؛ لأنه قد يضجره ويمله. ومعيار عدم الإطالة أن يترك المدعو في شوق لاستكمال الموضوع، وأن يطلب المزيد.

الاستعجال على المدعو قد يؤدي إلى نتيجة سيئة؛ إذ أنه قد يفصل في المسألة إما بالرفض وإما بالاستجابة والإقبال. وكلا الأمرين قبل أوانه خطير، فهذا من قبيل سلب القرار، لا من قبيل اختيار القرار.

ففي حالة قرار الرفض يكون المدعو قد تعجل في اتخاذ قراره قبل أن يستكمل وجوه الدعوة، وبذلك يكون قد اتخذ موقفاً من الدعوة، وليس من السهل أن يغير موقفه؛ لأن المرء حريص على أن يُعرف بالمواقف الثابتة، وهذه النتيجة إنما كانت بفعل الداعية الذي أراد أن يجني الثمرة قبل أوانها.

وفي حالة قرار الاستجابة المستعجل يجد المدعو نفسه بعد وقت يسير أمام تكاليف وواجبات لم يحسب حسابها، ويتبين له أنه لو انتظر قليلاً لما اختار هذا الموقف، ويدخل في صراع بين الموقف المعلن والموقف المبدئي، وقد يرتكب محظورات سلوكية كالكذب والنفاق، وكل هذا بسبب

(١) أخرجه البخاري (فتح الباري) ١/١٦٢.

الاستعجال عليه، ولو فتحت أمامه فرصة التفكير والتدبر لاتخذ الموقف المبدئي الأصيل.

والطريقة المثلى أن لا نستعجل إصدار القرار، بل نطلب من المدعو أن يتمهل في اتخاذ الموقف، وأن نصارحه بالعقبات في طريق الاستجابة إلى جانب الإيجابيات المبشرة والآمال المتوقعة.

وإن ادخال الزمن كعنصر من عناصر الدعوة يخفف من حدة الدعاة، ويقف أمام اليأس الذي يعتري الدعاة أحياناً، ويفتح لهم باب الأمل، ذلك عندما يفقهون دور الزمن. وإن الطبيب لا يقول للمريض خذ العلاج جرعة واحدة، بل يقول له خذه على جرعات، وفي خلال مدة معينة من الزمن.

القاعدة الحادية عشرة

الدعوة فن وقيادة وهي تقوم على التخطيط والمتابعة

يظن كثير من الدعاة أن الدعوة تقوم على قول الكلمة الخيرة في أي وقت وفي أي مكان، وأنها تسير بطريق عشوائي يستوي فيه الدعاة على اختلاف امكانياتهم. ومما لاشك فيه أن هناك دعاة آتاهم الله تعالى قدرة فائقة على التبليغ، وتراهم يألّفون ويؤلّفون، وقد وضع الله لهم القبول في قلوب الخلق، وهناك دعاة لا يحالفهم التوفيق في المنطق والأسلوب. وكلا الفريقين بحاجة إلى مبادئ الدعوة وأساليبها والتدرب عليها، وبذلك تكون الدعوة فناً يُتلقى، وقواعد وأساليب تُطوّر، ووسائل تتأثر بالتحديث والمعاصرة.

والتخطيط الواعي هو الذي ينقل الدعوة إلى الإطار الفني المنتج. والتخطيط هو التصور النظري لسير الدعوة، وكلما اكتمل التخطيط واستوعب عناصره أدى إلى النتيجة المتوقعة بعون الله وبعد الاتكال عليه.

وكما عُرفت أنواع الخطط الاقتصادية والسياسية والتربوية فإن على الدعاة أن يتجهوا نحو التخطيط للدعوة.

والخطة الواعية رأسها الأهداف، وجسمها الوسائل، والربط بين الأهداف والوسائل عن طريق الأساليب، ومادتها الإمكانيات البشرية والمادية والمعنوية، وموجهها المتابعة والتقويم، وثمراتها ظهور الأهداف على شكل نتائج ملموسة.

أما الأهداف: فهي الغايات من وراء الأعمال وتأتي عند الإجابة على السؤال الذي يوجهه الداعية لنفسه: لماذا أدعو؟ وماذا أريد؟ والإجابة على هذا السؤال هي مبدأ كل عمل من الأعمال، وعلى ضوء الجواب يتحدد الجهد المطلوب والزمن الكافي والوسائل والأساليب والتوقعات.

والجدير بالذكر أن اختلاف الدعاة في الإجابة على هذا السؤال هو الذي يجعلهم يختلفون في النتائج والتوقعات.

وهناك نوعان من الأهداف:

الأول: الهدف الأكبر، الذي هو الثمرة الرئيسة.

الثاني: الأهداف المرتبطة بأزمة محدودة أو أمكنة معينة أو أفراد معينين. أو تسعى لتحقيق الوسائل وتوفيرها. وهذه الأهداف بعضها يسلم للآخر، وبعضها أكبر من بعض، وكلها يستوعبها الهدف الكبيرة والغاية العظمى، ويحدث أحياناً خلط بين الأهداف الصغرى والأهداف الكبرى، وعندها تقل إنتاجية العمل، ويستنفد الدعاة جهدهم بعيداً عن الهدف الأكبر. فبعض الدعاة يجيب على سؤال لماذا أدعو؟

فداعية يقول: أدعو إلى تزكية النفوس لقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [٩ - ١٠]. وللوصول إلى هذا الهدف نجمع المريدين، ونطبق عليهم نظاماً يقوم على الأوامر السلوكية والأوراد والأذكار. وينبغي أن يُصرف الاهتمام كله لهذا الهدف.

وداعية آخر يقول: الهدف إعانة الفقراء والمساكين والإحسان إليهم لقول الله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ [٤٢] قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ [٤٣] وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمَسْكِينِ [٤٤] [المدثر:

٤٢ - ٤٤]. ولتحقيق هذا الهدف لابد من دعوة أهل الخير إلى الإحسان وبذل الصدقة وإيتاء الزكاة. وإنشاء الجمعيات الخيرية خير وسيلة لتحقيق هذا الهدف.

وداعية ثالث يقول: الهدف تحرير المسائل العلمية المختلف فيها، وجمع الأحاديث الصحيحة، ولتحقيق هذا الهدف لابد من عقد حلقات العلم وإنشاء المدارس والمؤسسات المتخصصة وطباعة الكتب.

وداعية رابع يقول: الهدف هو الوصول بالمسلمين إلى درجة عالية من الوعي السياسي الذي يطلعهم على مخططات الأعداء وما يستخدمونه من الوسائل لتنفيذ هذه المخططات، وتحقيقاً لهذا الهدف فلا بد من القيام بالدراسات المتخصصة العميقة، والاطلاع على ما يقال وينشر عن الإسلام. إلى جانب هذه الأهداف نجد بعض الدعاة يرضى بأهداف أصغر من ذلك، كأن يكون الهدف تشويه صورة جماعة ما باعتبارها حجر عثرة في طريق العمل الإسلامي، أو صرف الاهتمام نحو شخص معين يرى أنه السبب الرئيس في مشاكل المسلمين وقضاياهم!!

وبالرغم من أهمية بعض هذه الأهداف إلا أن السؤال يبقى قائماً: هل هناك أهداف أكبر وأشمل؟ وإن نظرة سريعة إلى مستويات الأهداف تجعلنا نقول:

الهدف الكلي مقدم على الهدف الجزئي.

والهدف الذي يستغرق جميع قطاعات المجتمع مقدم على الهدف الذي يتناول فرداً أو فئة.

والهدف الدائم المستمر مقدم على الهدف المؤقت المنقطع.

والهدف الممكن مقدم على الهدف غير الممكن.

والهدف الأعلى مقدم على الهدف الأدنى.

وهكذا فإنه من الممكن أن يصاغ الهدف الأكبر على الشكل التالي:

الهدف الكلي الأعلى الممكن المستمر الذي يستغرق جميع قطاعات المجتمع.

عبادة الله أعظم الأهداف:

ولا يشك أحد من الدعاة في أن أعظم الأهداف وأشرفها هو ما جعله الله تعالى هدفاً للإنسان وغيره، وهو هدف العبادة، لقول الله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقد حمل المسلمون هذا الهدف، ومن أجله انطلقوا يعبرون الصحاري والقفار، ويقارعون الجبابرة، وقد عبّر عنه رباعي بن عامر أمام قائد الفرس: «جئنا لنخرج العباد من عباده العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة»^(١).

العبادة هدف للفرد والجماعة والدولة:

وبناء على هذا فإن هدف الجماعة المسلمة والفرد المسلم والدولة المسلمة هو تحقيق العبودية لله رب العالمين، وأما الأهداف الخاصة فهي جزئية مرحلية أو إقليمية محلية، أو خاصة محدودة. والعمل اليومي أو الأسبوعي أو الشهري أو السنوي له أهدافه الخاصة. والعمل في القرية أو

(١) البداية والنهاية ٧ / ٣٩.

المدينة أو العشيرة أو العمال أو الطلاب أو النساء له أهدافه الخاصة، وكل مكون من مكونات المجتمع إنما يتحقق وفق أهداف خاصة.

الوسائل:

وأما الوسائل فمنها الوسائل المباشرة ومنها غير المباشرة، ولكل هدف جزئي وسائله الخاصة، فإذا قلنا: إن العبادة تتحقق من خلال العابد القوي في عقله وروحه وجسده، فإن وسائل خاصة كثيرة تتوارد من أجل هذا الهدف. والإمكانات والمعلومات تتدخل في استخدام الوسائل، ولست هنا بصدد تقديم خطة دعوة إنما المقصود إعطاء صورة عن عناصر الخطة ومكوناتها.

والوسائل تُستخدم بأشكال مختلفة وأساليب عدة، والأسلوب الأفضل يعطي من الوسيلة كفاءة أكبر، واختيار الأسلوب المناسب عامل كبير في نجاح العمل. ومن الأساليب: اللين والشدّة، والترغيب والترهيب، والكثرة والقلّة، والسر والجهر، والفردى والجماعى، والتارىخى والوصفى، والعقلى والعاطفى، والألم والأمل، والأخذ والعطاء.

جمع المعلومات أساس الخطة:

ولما كانت الخطة تصوّرًا واضحًا عن عمل فى مكان خاص وزمان محدد، وأناس محددين كان لابد من جمع المعلومات عن البيئة، سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية، أو مناخية، أو طبيعية أو فكرية، ولابد من معرفة مراكز القوة والضعف. ولابد من التعرف على العوائق والحوافز، وبذلك تكون الدعوة إلى الله على بصيرة: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨].

الزمن عنصر فعّال في الخطة:

والزمن عنصر فعّال في الخطة يدل على مدى النجاح أو الفشل، فما يحتاج إلى يوم واحد لا ينبغي أن يُصرف فيه شهر، وما يحتاج شهراً من الزمن لا ينبغي الإسراع في إنجازه في يوم أو أسبوع.

والمراجعة والتقييم بعد انتهاء مدة الخطة تساعد على معرفة الممكن من غير الممكن، والسهل من الصعب، والمراجعة تقدم هدفاً أو تؤخره، وتحكم على فعالية الوسائل أو عدم فعاليتها. وتكشف عن جدوى الأساليب أو عدم جدواها.

العين الساهرة:

والمتابعة عين ساهرة وأذن صاغية ويد مؤيدة، والخطة القوية قد تفشل بلا متابعة، والخطة الضعيفة قد تنجح مع المتابعة المستمرة.

فإذا توافرت هذه العناصر فقد وُجدت الخطة العلمية الواعية، ثم يُوكَل أمر تنفيذها إلى العناصر البشرية المدربة المنظمة. ولإعداد المنفذين فإن علومًا كثيرة أصبحت اليوم على درجة من الأهمية للداعية. فالعلوم الإدارية، وعلوم الاتصال بالأفراد والجماعات، والعلوم اللغوية والبلاغية، والعلوم النفسية والتربوية، هذه وغيرها تُعدُّ الداعية المنفذ للخطة.

والداعية الناجح صاحب مبادرة وبديهة حاضرة وقدرة على التصرف في أسوأ الظروف. وقبل أن يفاجأ بالمواقف الصعبة فإنه يفترضها، ويتصورها، ويلتمس لها الحلول، وهكذا فإنه يستعين بالموقف الوهمي الذي افترضه سابقاً لمواجهة الموقف الواقعي المفاجئ.

القاعدة الثانية عشر

الدعوة صورة أكيدة من صور الجهاد

وتتشترك مع القتال في الهدف والنتيجة

لم تعد كلمة الجهاد تعطي المدلولات التي فهمها الصحابة والتابعون، والتي جاء بها القرآن الكريم والسنة الشريفة، إذا أنها تعني في عرف بعض الدعاة القتال، وأنه لا جهاد بلا قتال. ونتيجة لهذا الفهم فقد ظهر في العالم الإسلامي أناس يريدون القتال ولو لم يحن وقته وتستكمل عدته، شعورًا منهم بأن الإثم يطاردهم وهم لا يقاتلون.

وتصويًا لهذا الفهم فإن علينا الرجوع إلى لسان الشرع في كلمة الجهاد، إذ أن مراجعة المعاني الشرعية ضرورة تعصم من الزلل والانحراف؛ قال في اللسان: «الجهاد محاربة الأعداء، وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل»^(١). وقال أيضًا: «والجهاد المبالغة واستفراغ ما في الوسع في الحرب، أو اللسان، أو ما أطاق من شيء»^(٢). وليبيان هذا المعنى العام للجهاد من سنة رسول الله ﷺ نسوق قول ابن قيم الجوزية: «كان رسول الله ﷺ في الذروة العليا منه فاستولى على أنواعه كلها، فجاهد في الله

(١) لسان العرب ٤/ ١٠٩.

(٢) لسان العرب ٤/ ١١٠.

حق جهاده بالقلب والجنان، والدعوة والبيان، والسيف والسنان»^(١) ثم يقول: «أمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه وقال: ﴿لَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١ - ٥٢].

فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن، وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣] فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل. والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقل عددًا فهم الأعظم عند الله قدرًا. ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض، مثل أن تتكلم عند من تخاف سطوته وأذاه كان للرسول صلوات الله عليهم من ذلك الحظ الأوفر. وكان لبنينا صلوات الله وسلامه عليه من ذلك أكمل الجهاد وأتمه. ولما كان جهاد العبد في الخارج فرعًا على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه». كان جهاد النفس مقدمًا على جهاد العدو في الخارج»^(٢).

هدف الجهاد:

ونخلص من هذا إلى أن الجهاد استفراغ الوسع في محاربة الأعداء في الداخل والخارج، وليس الهدف منه هو القضاء على العدو، وإنما هو القضاء

(١) زاد المعاد ٢/ ٣٨.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٣٨.

على أسباب العداوة والخصومة، فالكفر سبب العداوة بين المؤمن والكافر، فإذا زال السبب ودخل الكفار في الإسلام فقد زالت العداوة. والنفاق سبب العداوة بين المؤمن والمنافق، وإذا زال النفاق زالت العداوة.

ومآل الحرب في الإسلام إلى أحد أمور:

أن يدخل الكافر المحارب في الإسلام.

أن يدفع الجزية، ويدخل في دار الإسلام خاضعاً لثقافتها ونظامها.

أن يُقتل فيُقتضى على كفره باستئصاله وهدر دمه.

الدعوة هي الوسيلة الأولى لكسب الأنصار:

وهذا ترتيب توقيفي لا بد من مراعاته. ومن خلاله نرى أن الدعوة مقدمة على غيرها، وهي الوسيلة الأولى لكسب الأنصار ولتحويل الكفار إلى مؤمنين، وهدف الدعوة باللسان واليد واحد. والأصل في تكوين المجتمع المسلم دعوة الأفراد للدخول في الإسلام فيلتزمون عقيدته وشريعته.

والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة تجلب كل يوم أنصاراً للإسلام. وكلما أقبل فرد على هذه الدعوة سقط مكون من مكونات الجاهلية، وهكذا فإن الجاهلية في مكة كان لها في كل يوم حديث عن تحول رجل أو امرأة من ساحة الشرك إلى ساحة الإيمان، ومن جند الشيطان إلى جند الرحمن.

ما فقدناه بسبب الغزو الفكري نسترده عن طريق الدعوة

إن الغزو الفكري الذي داهم بلاد المسلمين قد استحوذ على جمهرة كبيرة من أبنائها، وسقط هؤلاء الأبناء صرعى في معركة فكرية كانت غير

متكافئة في غيبة الدعاة، وما خسرناه عن طريق الفكر أكثر مما خسرناه عن طريق معارك المواجهة، وما نسترده عن طريق الفكر بعد هذه الصحوة واليقظة أكثر مما نسترده عن طريق المواجهة.

وفي حين أن القتال يكون بين مجتمعين: مجتمع الإيمان ومجتمع الكفر بسبب العوائق التي يضعها الكافرون في وجه الدعوة، فإن الدعوة بالحوار والموعظة تبقى قائمة في المجتمع نفسه، لاستقطاب الأفراد من هذا المجتمع أو من المجتمعات الأخرى. وأما انقسام المجتمع إلى فرقتين متصارعتين فإنه يُلغي الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ويُنهي دور الكلمة الهادئة الودود، وعندها لا يكون أمام الدعاة من سبيل إلا الفرار من المجتمع والرضا بشواهد الجبال أو عميق الكهوف، وبذلك تتآكل الدعوة وتذوى يوماً بعد يوم.

إن الفرار من المجتمع أو العزلة عنه أسلوب يدل على ضيق الأفق ويكشف عن جهل بأوليات الدعوة. ويدل أيضاً على اليأس من المجتمع، وعلى فشل الداعية في الإصلاح، وإن أعداء الفكرة الإسلامية يطمعون في إيصال الداعية إلى مثل هذه القنوات، وإن خطر هذه الأفكار أعظم على الدعوة من خطر أعدائها عليها.

موقف النبي ﷺ من العزلة:

لقد كان رسول الله ﷺ وهو في شعب أبي طالب يتشوق إلى اليوم الذي تُمزق فيه صحيفة المقاطعة ليعود هو وأصحابه إلى المجتمع المكي يقارعونه بالحجة والموعظة والكلمة. وبذلك يكون رسول الله ﷺ قد رفض العزل عن المجتمع، ولم يعد وجوده وأصحابه في الشعب استقلالاً مباركاً

للحركة الإسلامية عن المجتمع، وذلك لأن الإسلام يقرر أن للدعوة طريقين:

الطريق الأول: الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، عندما يكون المسلمون مختلطين بغيرهم، وهم قلة في المجتمع.

الطريق الثاني: الدعوة بكل وسائلها بما فيها القتال وذلك عندما يكون للمسلمين مجتمع كتب له أسباب الحياة من حيث الموقع الاستراتيجي والسكاني والاقتصادي.

فَهُمُ الْمَفْسِرِينَ لهذه الفكرة:

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧] يقول: «كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين. وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليتشفوا من أعدائهم. ولم يكن إذ ذاك القتال مناسباً لأسباب كثيرة، منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام»^(١).

تحليل:

فابن كثير رحمه الله يستبعد استعمال القوة عند قلة العدد، الذي هو مظنة عدم الغلبة، وهذا مخالف للفهم الخطأ، الذي خلاصته أنه لا عبرة بالعدد

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٢٩.

والعدد على الإطلاق، وأن مائة صابرة تغلب ألفاً، علماً بأن القرآن الكريم جاء يفصل هذه القضية، وفي سورة الأنفال يقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥) أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ [الأنفال: ٦٥ - ٦٦].

قال ابن كثير: عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ شق ذلك على المسلمين، حين فرض الله عليهم ألا يفرّ واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف فقال تعالى: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ قال: خفف الله عنكم من العدة، ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم.. روى البخاري عن ابن عباس، رضي الله عنهما: «لما نزلت هذه الآية ثقل على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفاً، فخفف الله عنهم، فنسخها بالآية الأخرى، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم لم يسغ لهم أن يفروا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك لم يجب عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم»^(١).

قال الرازي: الذي استقر حكم التكليف عليه بمقتضى هذه الآية كل مسلم بالغ مكلف وقف بإزاء مشركين فالهزيمة محرمة عليه ما دام معه سلاح يقاتل به. فإن لم يبق معه سلاح فله أن ينهزم، وإن قاتله ثلاثة حلت له الهزيمة والصبر أحسن^(٢).

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤٤.

(٢) تفسير الرازي ١٥/ ١٩٦.

وهذا النمط من التربية يفتقر إليه كثير من الناس الذين يظنون أن التهور قربة إلى الله تعالى، ويظنون أن رمي الألفوف المؤلفة بالآحاد أسلوب مبدع من أساليب العمل الإسلامي، والآيتان السابقتان تبطلان هذا الفهم. علماً بأن أصحاب رسول الله ﷺ هم في الذؤابة في طلب الفضل والسبق والتماس رضا الله سبحانه وتعالى.

وهناك فرق كبير بين الرغبة في تسجيل المواقف البطولية والرغبة في تحقيق الأهداف، والوصول بالمسلمين إلى شاطئ السلامة، والخروج بهم من المعاناة.

وأما قول ابن كثير: «ومنها كونهم كانوا في بلدهم» فيدل على فطنته وحكمته، فقد التفت إلى أن المسلمين في مكة إنما يعيشون في بلدهم، وعندما يلجأون إلى القوة فإن آثارها ستصيب بلدهم أولاً. والمسلم عُرف بالإصلاح والإحسان والتنمية والتزكية وصلة الرحم رغم ما يكون عليه أعداؤه من قومه من القطيعة والإساءة.

سورة الفتح تؤكد هذا المعنى:

وقد جاءت سورة الفتح تذكر أن وجود بعض المؤمنين الذين يكتمون إيمانهم في المجتمع المكي كان من الأسباب التي صُرف من أجلها القتال، فقال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَجَلَّةٌ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

يقول القرطبي في تفسير هذه الآية ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾: يعني المستضعفين

من المؤمنين بمكة وسط الكفار، ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أنهم مؤمنون، ﴿أَنْ تَطُوهُمْ﴾ بالقتل والإيقاع ﴿فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرٍ﴾، أي: يقول المشركون: قد قتلوا أهل دينهم ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ لو زال المؤمنون من بين أظهر الكفار لعذب الكفار بالسيف، ولكن الله يدفع بالمؤمنين عن الكافرين^(١). وفي ذلك يقول ابن كثير: «ولولا أن بين أظهرهم من يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم، لكنا سلطانكم عليهم، فقتلتموهم، وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتال»^(٢).

نخلص من هذا إلى أنه لا مناص من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة في حالة اختلاط الصالحين بغيرهم، والمسلمين بغيرهم، وأن استخدام القوة مؤداه خطر على الدعوة والدعاة للأسباب الآتية:

- ستعرض فئات المجتمع لألوان البطش والإرهاب وسيذهب البريء مع غيره.
- ستُغيب الدعوة بالحكمة والموعظة والكلمة، ولن يعود هناك وسيلة للفتاهم سوى القوة.
- سيترك الدعاة أماكن التأثير في المجتمع إلى المغاور والكهوف والأماكن النائية.
- ستنفرد الأفكار المعادية بتربية المجتمع وتوجيهه.
- سيواجه الإسلام بالدعاية المضادة، واتهام رجاله بأنهم لا يفهمون سوى لغة القوة والبطش.

(١) تفسير القرطبي ٦/ ٣٤٥.

(٢) تفسير ابن كثير ١٦/ ٢٨٥-٢٨٦.

- ستخسر الدعوة من رجالها من يصعب تعويضه وسد العجز الناشئ عن فقدته.

- سيقف هذا الأمر مانعاً من لحاق كثير من الناس بركب الدعوة، لأن الناس يفهمون عندها أن الدعوة ليس لها هدف عميق صبور طموح يعمل، بإذن الله، على إيصال المجتمع إلى قبول الإسلام، وإنما يسود التصور القائل بأن المسلم يريد أن يموت في سبيل الله، وليست لديه خطة واعية ناشطة للوقوف في وجه الفتن التي ستبقى تلاحق أبناءه وأقرباءه وجيرانه. وعندما لا يضع المسلم في حسبانته مقارنة قوته بقوة أعدائه فإنه يحول العمل للإسلام إلى ضرب من الانتحار، ولكنه في سبيل الله !!.

وقفه:

وهناك خلط كبير بين طبيعة الجماعة وطبيعة المجتمع، والذين يطالبون الجماعة بما يطالبون به المجتمع، إنما يفعلون ذلك لظنهم بأن الجماعة مجتمع.

والصواب أن الجماعة أفراد من الناس التقوا على فكر معين وولاء معين وخطة معينة ولهم تنظيم وقيادة، وهؤلاء الأفراد متناثرون بين فئات المجتمع، لا يشكلون أكثرية عددية، ولا يملكون القوة الفاعلة في أجهزة المجتمع ومؤسساته، وصورة المسلمين في مكة قبل الهجرة تمثل حالة الجماعة.

وأما المجتمع فهو قطاع عريض من الناس، يحكمهم نظام ويخضعون لسلطان، وهذا القطاع له مؤسساته وأجهزته، ويسيطر على هذه المؤسسات

والأجهزة، ويضع لها السياسات، ويقوم هذا المجتمع على أرض لا ينازعه فيها أحد، وهذا القطاع العريض يعمل على صياغة الأفراد وفق قيمه وتطلعاته، والمجتمع في المدينة بعد الهجرة يمثل هذه الصورة.

نتيجة:

إذا اتضح هذا فينبغي أن نفرق بين مواجهة مجتمع لمجتمع آخر، وبين مواجهة جماعة لمجتمع، والجماعة لا تستطيع أن تواجه المجتمع، وذلك لأن المجتمع نسيج كامل، وأجهزة فاعلة ناشطة لا تتوقف عن العطاء والتنمية والتكاثر، ففي المجتمع تبقى المؤسسات التعليمية تعمل، وتبقى المؤسسات الاقتصادية تنتج، وتبقى الدوائر التربوية تربي، في حين أن الجماعة إذا دخلت في محنة القتال فإن دوائرها التربوية والاقتصادية والعملية وسائر وسائلها ستتوقف عن العمل، وفي النهاية فإنها ستضمّر وتذوى، وإلى جانب ذلك فإن المجتمع لا يهتز بخسارته فرداً من أفراد.

النبي ﷺ بين الجماعة والمجتمع:

وتطبيقاً لهذا المبدأ فإن الرسول ﷺ لم يوافق بعض الأنصار في بيعة العقبة عندما استأذنوه في أن يميلوا على أهل منى بأسياقهم، وذلك بعد أن فهموا أن البيعة كانت على حرب الأحمر والأسود.

قال في إمتاع الأسماع: «وكانت هذه البيعة على حرب الأحمر والأسود، فلما تمت بيعتهم استأذنوا رسول الله ﷺ أن يميلوا على أهل منى بأسياقهم، فقال: «لم نؤمر بذلك»، فرجعوا وعادوا إلى المدينة»^(١).

(١) إمتاع الأسماع ٣٧.

ولو كان الهدف من الدعوة مجرد الانتقام من رؤوس الشرك لأمر رسول الله ﷺ، أتباعه بقتلهم، ولو كان الهدف من الدعوة أن يصل المؤمنون إلى مرتبة الشهادة لقاموا بذلك في بداية أمرهم عند البيعة وهم في طور الجماعة، وهذا عمل لا ينسجم مع الأهداف والمصالح الكبيرة التي راعاها هذا الدين.

وكذلك الحال في المدينة؛ فإن أهل المدينة لم يدخلوا في الإسلام دفعة واحدة، بل بقيت طوائف النفاق تعيث فسادًا وتتآمر على المسلمين، إلا أن رسول الله ﷺ استعاض عن حرب التصفية الجسدية بحرب الدعوة والجدل والإحسان للخصوم.

اختلال الموازين أمام ضغط الواقع:

لا شك أن للواقع الذي يعيشه المسلمون تأثيرًا كبيرًا على فكرهم وممارستهم، وأحيانًا يصل ضغط هذا الواقع إلى درجة يفقد المسلم معها قدرته على تصور الخط المنهجي، ويتساءل: إلى متى نبقى تحت وطأة المعاناة؟ فيقول: أليس هناك شيء غير الصبر والمصابرة؟ وعندها يجيب المتحمسون على هذا السؤال بطلب المواجهة والانتقام ولو على حساب الدعوة.

والقرآن الكريم يحذرنا من هذا التفكير الغرّ، ويبين أن أكثر الناس حماسًا وتهورًا واستعجالًا هم الذين يصابون بخور العزيمة.

ومن هنا فإن الشجاعة في مكة كانت بكفّ الأيدي وضبط النفس، ولم يكن هذا جبنًا أو خوفًا، والشجاعة في المدينة كانت بالقتال وجهاد الأعداء. ومن لم يمتلك الشجاعة في مكة بكف يديه وضبط نفسه نجده تخور نفسه

وتنهار عزيمته عندما طُلب منه مواجهة الكفار في ساحة المعركة. فالتعالي على الأذى والجراح مع شدة الدواعي الباعثة على الانتقام هو قمة الشجاعة. إذ أن النفس مجبولة على كره الظلم وحب الانتقام، وإرغامها على الصبر حرصاً على مصلحة الجماعة الناشئة يحتاج إلى مجاهدة ومصابرة، فقمة المجاهدة الانتصار على النفس لا الانتصار لها: ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «يعجب الله سبحانه من أمر هؤلاء الذين كانوا يتدافعون حماسة إلى القتال، ويستعجلونه، وهم في مكة يتلقون الأذى والاضطهاد والفتنة من المشركين، حين لم يكن مأذوناً لهم بالقتال للحكمة التي يريدتها الله، فلما أن جاء الوقت المناسب الذي قدره الله، وتهيأت الظروف وكُتب عليهم القتال، إذا فريق منهم شديد الجزع شديد الفرع»^(١).

ويقول أيضاً: «إن أشد الناس حماسة واندفاعاً وتهوراً، قد يكونون هم أشد الناس جزعاً وانهياراً وهزيمة عندما يجد الجدّ وتقع الواقعة، بل إن هذه قد تكون القاعدة! وذلك أن الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة غالباً ما تكون منبعثة عن عدم التقدير لحقيقة التكاليف، لا عن شجاعة واحتمال وإصرار، كما أنها قد تكون منبعثة عن قلة الاحتمال، قلة احتمال الضيق والأذى والهزيمة، فتدفعهم قلة الاحتمال إلى طلب الحركة والدفع

(١) في ظلال القرآن ٢ / ٧١٢.

والانتصار بأي شكل، دون تقدير لتكاليف الحركة والدفع والانتصار، حتى إذا ووجهوا بهذه التكاليف كانت أثقل مما قدروا وأشق مما تصوروا، فكانوا أول الصف جزعاً ونكولاً وانهاراً. على حين يثبت أولئك الذين كانوا يمسكون أنفسهم ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت، ويعدون للأمر عُدَّتُهُ»^(١).

واجب الموجهين والمفكرين:

قد يبلغ تيار الحماس من الشدة إلى درجة ينساق المربي والموجه والمفكر في هذا التيار، ويفقد هؤلاء قدرتهم على السيطرة والقيادة. وهذه مجازاة خطيرة وكما تكون مجازاة أهل المعاصي في معصيتهم فإن مجازاة المتعجلين والتنازل عن خط الدعوة المثمر كبيرة من الكبائر، بالرغم مما قد يوصف به الموجه من العجز والضعف. وإن الموجه الذي آتاه الله بصيرة ومعرفة مسؤول عن نتائج التعجل أكثر من المتعجلين.

الحل الصحيح:

إن ضغط الواقع ينبغي أن لا يسوق إلى الحل الخطأ، ومهما طال انتظار الحل الصحيح فإن هذا هو الصواب، وطول الزمن لا يفقد الحق أحقيته، وقصر الزمن لا يُضفي على الخطأ صفة الصواب.

عود على بدء:

إن الحل الصحيح هو الدعوة مع المعاناة، والصبر على طول الطريق، والتمركز في المجتمع والتماس أسباب القوة، والبحث عن هذه الأسباب في

(١) في ظلال القرآن ٢ / ٧١٢.

كل مجتمعات الأرض، وحشد الطاقات في أكثرها توقعًا لقبول الدعوة، وهو جهد لا يعرف الكلل ولا الملل، وعندئذ تقوم القاعدة الصلبة، التي يبدأ منها طريق الحل الشامل.

وقبل ذلك:

وإلى أن يصل المسلمون إلى تلك المرحلة فإنه سيدفعون الثمن غالياً من الضحايا والدماء والأشلاء، ولكن سيجدون بعون الله تعالى ثمرة جهادهم وجهدهم. وبغير هذا الطريق سيدفعون الثمن مضاعفاً مع البعد عن الهدف.

وعندما يقبل المجتمع أن يكون الإسلام نظامه وشريعته، وذلك من خلال مراكز القوة فيه، فإن المجتمع يصبح إسلامياً، وعندئذ تتكون القاعدة القادرة على القيام بأعباء الجهاد، ويكون المجتمع عندئذ قادراً على استغلال طاقاته، عاملاً على تعويض كل نقص ينشأ من جراء القتال، ويصبح القتال وسيلة ممهدة للدعوة تعمل على إزالة العقبات المانعة من وصول الدعوة إلى الناس.

فالهدف من الدعوة والقتال واحد، وهو إيصال الخير إلى الناس. والفارق بينهما أن الدعوة تكون مع احتمال الأذى، والقتال يكون دعوة مع إزالة الأذى.

إن أعداء الإسلام يطمعون في أن تخرج الجماعة المؤمنة عن خطها فتستعجل النصر، وتحاول قطف الثمرة قبل أوانها. والشواهد كثيرة على عمليات الاستدراج التي تنتهي بالبطش والتنكيل بالعاملين للإسلام، إلى جانب النتائج السلبية التي يتركها التعجل على الجماعة وأنصارها وخططها

ومستقبلها.

لقد آن الأوان أن يفعل المسلم ما يريد لا ما يُراد له وأن يتصرف وفق ما خطط له، ولا ينبغي أن يُشغل المسلم عن هدفه مؤثراً حظ النفس في العاجلة، على تحقيق الأهداف الآجلة.

إن الجماعة الإسلامية لتسجل كل يوم نتائج إيجابية تقربها من الهدف، وإن المراقب المنصف ليرى التحولات الجذرية في فكر كثير من الناس وسلوكهم، ويلاحظ أن الأمة بدأت تستجيب لنداء الإيمان، وبدأت تالف ما كانت بالأمس تنكره، وإن العمل الحثيث يصل بالأمة إلى إحداث تغيير كبير في جميع شؤون حياتها. وإن العديد من المؤسسات آخذ في الاتجاه نحو الإسلام.

وهكذا فإن الدعوة إلى الله تعالى هي الوسيلة إلى تكوين مجتمع الإسلام وقاعدته، وإن القتال حركة اجتماعية تنبثق عن المجتمع وترتكز على القاعدة الصلبة، وعندها ماذا سيقول المتعجلون؟ هل يقولون: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧].

القاعدة الثالثة عشرة

الدعوة سلعة شريفة لا تُباع بالأعراض الدنيوية،
والأجر الدنيوي يفسد المروءة، ولا يُصلح الدعوة

الداعية يعمل بمقتضى تكليف الله تعالى. ووظيفة الدعوة ليست من جنس الوظائف الدنيوية، فهي أسمى وأشق، وما من وظيفة تحتل كل صور الهلاك والانهاك كوظيفة الدعوة: ففيها توقع هلاك النفس والمال، وفيها احتمال البعد عن الأهل والولد والأوطان. ووظيفة فيها مثل هذا الجهد لا تعادلها الدنيا كلها.

ولقد كان كل نبي من أنبياء الله الكرام يؤكد هذا المبدأ قائلاً: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقد أمر رسول الله ﷺ بالتزام هذا النهج، وعندما أعرض أهل مكة عن الإيمان جاءت الآية تسألهم عن سبب إعراضهم، وتقول: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠]. علماً بأن طلاب الدنيا لا يفعلون شيئاً إلا بأجر دنيوي. وإن قصة السحرة مع موسى، عليه السلام، تثبت هذا عندما قالوا لفرعون: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأَجْرُكَ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١]. فأكد لهم فرعون، وقال: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢].

وبعد دخول الإيمان إلى قلوبهم لم يتركوا الأجر فقط، بل قالوا له: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢].

أنواع الأجر الذي يتنزّه عنه الداعية:

والأجر الذي ينبغي أن يتنزّه عنه الداعية لا يقتصر على المال، وإنما يشمل كل منفعة سببها الدعوة، وينبغي أن لا ينتظر من الناس كلمة الشكر ولا إسداء المعروف. وكل الذي يريده من المعروف أن تصل الدعوة إلى قلوب الخلق.

والتأكيد على عدم طلب الأجر له فوائد وحكم:

الأول: قد يظن المدعوون أن الداعية إنما شرع في الدعوة كي يتوصل بالدعوة إلى الرزق والاكْتِسَاب، فرب صاحب دعوة يريد صرف وجوه الناس إليه لينتفع من دعوته، لاسيما وأن معظم الدعاة إلى الله فقراء، وعلى رأسهم الأنبياء الكرام، صلوات الله عليهم، يقول الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقْوَمُ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]. كأنه عليه الصلاة والسلام قال لهم: إنكم لما نظرتهم إلى ظواهر الأمور وجدتموني فقيرًا، وظننتم أنني إنما اشتغلت بهذه الدعوة لأتوسل بها إلى أخذ أموالكم، وهذا الظن منكم خطأ، فإني لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا^(١).

الثانية: تعودت الشعوب أن تتعامل مع المشعوذين والدجالين من الكهنة الذين يتوصلون بالدين إلى الدنيا وملذاتها، فجاء التأكيد على أن هذه الدعوة نقية أصيلة لا يبتغي أهلها عرضًا من أعراض الدنيا يتوصلون إليه بسببها.

الثالثة: كل عمل مأجور قد يعتريه النقص والخلل؛ وصاحبه يسير به حسب مقدار الأجر. ودين الله أكرم من أن يُربط بمتاع الدنيا وتقلبه. ومن هنا

(١) تفسير الرازي ١٧/ ٢١٥.

فالعمل للدعوة مرتبط بالإخلاص.

الرابعة: والعمل المأجور يتأثر بمن يدفع الأجر، وإرادته تتدخل في العمل. وقد عرفت الدعوات نمطاً من الناس غيروا وبدلوا تحت ضغط الأجر الدنيوي. وأما الأنبياء الكرام والصالحون من الدعاة إلى الله فقد ثبتوا على معالم دعوتهم قاطعين طمع كل طامع في أن يغيروا ما جاءوا به أو يبدلوه.

الخامسة: وإذا عرف الناس أن الداعية لا يلتبس منفعة دنيوية فإنهم يتبينون صدق الداعية في دعوته، وينجذبون إلى الدعوة، ومن هنا فقد كانت دعوة رسول الله ﷺ أكثر الدعوات تأثيراً، وأعمقها أثراً في نفوس الأتباع. قال الحسن البصري: لا تزال كريماً على الناس ما لم تعاط ما في أيديهم، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك وكرهوا حديثك وأبغضوك^(١).

ومن لوازم غنى الداعية عن الناس أن يكون ذا كسب من تجارة أو زراعة أو عمل أو حرفة. كان أيوب السخيتاني يقول لأصحابه: الزموا السوق فإن العافية في الغنى^(٢). وقد عُرف أصحاب رسول الله ﷺ والسلف الصالح بغناهم عن الناس، وذلك لما كانوا عليه من الكسب، وما اتصفوا به من القناعة. ولكن ينبغي أن لا يقود الكسب، كحاجة، إلى الحرص، ولا إلى تضييع العمر في جمع المال.

وقد يجد الداعية قبولاً عند الناس فيُعبرون عن محبتهم له بالهبات والصلات والخدمات والدعوات، وقبول الداعية لمثل هذه الأمور يحط من دعوته في أنظار الناس، فيهون عليهم، ويصبح الداعية مرذول الطريقة مذموم

(١) حلية الأولياء ٢٠/٣.

(٢) حلية الأولياء ١٠/٣.

السيرة. والصادقون من الدعاة يعطون ولا يأخذون، وهم أصحاب الأيدي العالية والنفوس الكبيرة، ويدخل هذا تحت المروءة التي هي عنصر من عناصر الشخصية المسلمة، ومكون من مكونات الثقة، يقول الماوردي والمروءة هي حلية النفوس وزينة الهمم^(١). ولا تكون المروءة إلا في العفة والنزاهة والصيانة. والعفة البعد عن المحارم والمآثم. والنزاهة البعد عن المطامع الذاتية، والمواقف المربية. وأما الصيانة فتكون بصيانة النفس عن تحمل المن والاسترسال في الاستعانة بالخلق^(٢).

يقول الماوردي: والمحتاج إلى الناس كلُّ مُهْتَضَم وذليل مُسْتَقْتَل^(٣).

ومما يجب أن يُلتفت إليه أن الوظائف التي يُحبس عليها صاحبها كالتعليم والإمامة والخطابة إنما يأخذ الأجر لكونه مشغولاً بها عن الاحتراف والاكْتِسَاب، وهذا جائز شرعاً، ويدخل في ذلك أيضاً مسؤولية الإمامة العامة وولاية القضاء، وكل ما كان من جنس هذه الاعمال وكان محبوساً عليها، وكذلك أخذ الأجر على المهمات الدعوية التي يُكَلَّف الداعية بها، ويتفرَّغ لها.

(١) أدب الدنيا والدين ٣٠٦.

(٢) أدب الدنيا والدين بتصرف ٣٠٦/٣١٦.

(٣) أدب الدنيا والدين ٣١٦.

القاعدة الرابعة عشرة

التعرف على المدعوّ عامل أساس في كسبه

ليست الدعوة كما يظن بعد الدعاة أنها كلمة تقال من أجل إبلاغ العذر وإقامة الحجة؛ ويُتوصل إليها بأن يُقال كل شيء في كل مكان وفي أي زمان ولأي إنسان، مهما كان ظرفه، ولا فرق في ذلك بين محزون ومسرور ومريض ومشغول وغيره. وكأن الغاية هي إلقاء العبء وزرع البذر كيفهما اتفق، وبالرغم من كون هذا الأمر دعوة؛ إلا أنها دعوة على غير بصيرة، والداعية مطالب بالبصيرة مع الدعوة، لقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ﴾ [يوسف: ١٠٨]. يقول الإمام الرازي في تفسيره: وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط، وهو أن يكون على بصيرة مما يقول، وعلى هدى ويقين^(١).

وهذه البصيرة تظهر على شكل أنواع من السلوك، وألوان من التصرف والتعامل، وطرائق من الاختيار، تتقرر بعد معرفة المدعويين وإدراك أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والنفسية، ومما لا شك فيه أن التعامل مع المجهول شاق وصعب، في حين أن التعامل مع المعروف يوفر الكثير من الجهد.

وأول ما ينبغي معرفته أسماء المدعويين وكناهم وألقابهم، وأن يخاطبهم

(١) تفسير الرازي ١٨ / ٢٢٥.

الداعية بأحب الأسماء إليهم، وأن يتجنب ما يسوؤهم من الألقاب والكنى. والداعية الناجح يعمل جهده على أن يذكر أسماء المدعوين، وإذا لم يرزق الذاكرة الحافظة فإن عليه أن يستحفظ الأسماء، وقد يجد المدعو في نفسه إذا تكرر نسيان الداعية لاسمه، في حين أن المدعو يفاجأ إذا خاطبه الداعية باسمه، ويشعر بالاهتمام والتقدير.

وإن معرفة ما يحبه المدعو وما يكرهه تجعل الداعية فقيهاً بلغة المدعو الخاصة، فهذا رسول الله ﷺ ما أن يعلم حب أبي سفيان للفخر حتى يقول: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»^(١). وإذا بزعيم مكة الذي خرج للدفاع عن قاعدة الشرك يرجع ليحولها قاعدة للإسلام. وفي صلح الحديبية يأمر النبي ﷺ بأن يُعرض الهدي في وجه الحُليّس بن علقمة، سيد الأحابيش، الذي أرسلته قريش إلى رسول الله ﷺ - يقول ابن هشام: «ثم بعثوا إليه الحُليّس بن علقمة، وكان يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه النبي ﷺ قال: «إن هذا من قوم يتألّهون، أي يتعبدون، فأبعثوا الهدي في وجهه حتى يراه» فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال لهم ذلك، فقالوا له: اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك، فغضب عند ذلك، وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أئصدُّ عن بيت الله من جاء معظمًا له»^(٢).

وهاتان الحادثتان وغيرهما كثير في سيرة النبي ﷺ شواهد على البصيرة التي جاء هذا الدين يؤكدّها في كل جزئياته، ويستطيع الداعية إذا أوتي مثل

(١) صحيح مسلم ١٧٨٠، سيرة ابن هشام ٤/٤٠٣.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/٣١٢.

هذه البصيرة أن يكسب قلوب الناس، وأن يستفيد من طاقاتهم وجهودهم. والداعية الناجح يتعرف على أحوال الناس وأوضاعهم، ولا تغيب عنه كثير من أمورهم الفكرية والاجتماعية والنفسية، ويعرف متى يكون المدعو مشغولاً، ومتى يكون خالياً، وهذه المعرفة تأتي من خلال المعاشة والنشاط الاجتماعي، فالداعية لا يضيع أية فرصة يمكنه من خلالها التعرف على المدعويين، ويجب أن تتم هذه المعرفة بطريقة لا تثير انتباههم.

ومن جوانب المعرفة الضرورية والمفيدة معرفة أوضاع المدعو الاقتصادية، فإن كان فقيراً معوزاً كانت مساعدته من أهم القضايا التي تهتم بالداعية، وإن كان مريضاً كانت مواساته وإرشاده إلى الطبيب المسلم من وظائف الداعية.

وإن كان في نزاع مع أقربائه أو جيرانه أو زوجته كان الإصلاح وجمع الشمل من اهتمامات الداعية. وإن كان قد هُضم حقه في وظيفة أو عمل كان انصافه ونصره من طموحات الداعية. وإن كان مسترشداً أو طالباً لنصيحة في دين أو دنيا كان الداعية حاضراً لكل إرشاد ونصيحة ممكنة، وإذا عجز عن ذلك فلن يحرم الداعية من نصير من إخوانه يسد العجز، ويفرج الكربة.

وحضور الداعية في المناسبات من الأفراح والأتراح والأعياد يفتح له ميادين الدعوة، ويقدم له فرصاً طبيعية للاتصال بالناس وكسب وُدِّهم. وكم من سؤال عن الولد المريض جعل الوالد يفتح قلبه ويلقي بسمعه ويمد يده. وكم من همسة تهنئة بولد رُزقه أو فوز حققه كانت سبباً في تحويل اتجاهه وتغيير قراره. ولا يعدم الداعية البصير من وسائل كثيرة تساعد على كسب القلوب وتكثير الأنصار.

القاعدة الخامسة عشرة

المعاصرة ومعرفة البيئة العامة من أسباب نجاح الدعوة

كلما تقدم الزمن، واتسعت الحياة وتعقدت، كان الداعية أحوج إلى مزيد من المعارف. ويصبح من الضروري أن يتعرف الداعية على البيئة العامة: الاجتماعية والاقتصادية والسكانية والسياسية. والداعية الأوسع اطلاعاً هو الأقوى أثراً في الغالب.

ولما كان الداعية يقوم بدور قيادي في المجتمع فإن أفراد هذا المجتمع يتوقعون أن يجدوا عند الداعية ثقافة واسعة، ومعارف متنوعة في المستوى المحلي والعالمي.

ومعرفة البيئة العامة تساعد الداعية على الاستفادة من فرص البيئة، وتساعده كذلك على الاستفادة من البيئة المحلية والعالمية؛ فهذا هو رسول الله ﷺ ينظر في الدول المعاصرة فيجد الأمن والطمأنينة عند النجاشي في الحبشة، وإن كان ذلك بوحي من الله تعالى، ويستفاد منه معرفة النبي ﷺ بالأوضاع الساسية، وعندما خاطب هرقل قائلاً: «فانما عليك إثم الأريسيين»، فهذه معرفة عميقة بتاريخ النصرانية، فإن اريوس هو أحد النصاري الموحدين أتباع الدين الحق، وقد دخلت في عقيدته الصحيحة كنائس الشام، فكان هذا التنبيه من النبي ﷺ لهرقل بأن أهل هذه البلاد أريسيون مسلمون. وعليه فإن على الداعية أن يبذل جهده لمعرفة معطيات

التاريخ والسياسة والزمان والمكان والسكان. ومما لا شك فيه أن كل بيئة لها مميزاتها ومتطلباتها. فالبيئة الصحراوية غير البيئة القروية، والبيئة القروية غير البيئة الحضرية، والبيئة التجارية غير الصناعية والزراعية.

والداعية اليوم يعيش في عالم إسلامي مترامي الأطراف، ولا يخلو قطر من أقطاره من مشكلة مزمنة، وفي نفس الوقت فإنه لا يخلو قطر من أسباب القوة والمنعة للإسلام والمسلمين. ثم إن العمل الإسلامي في هذه الأرجاء المتباعدة أخذ يتجه إلى الوحدة والتعاون، ومن أجل ذلك فلا بد من المعرفة الواسعة بهذا العالم.

والداعية يعيش في عالم مقسم بين مراكز النفوذ الدولي إلى مناطق امتياز، ويؤثر هذا الأمر على العالم الإسلامي وعلى الدعوة الإسلامية سلباً وإيجاباً، ولذلك فلا بد من معرفة كيف يدور الصراع وكيف يقسم النفوذ بين الدول.

والداعية يعيش في عالم تتصارع فيه الأفكار والتيارات والفلسفات، والأفكار فيه سريعة التقلب والتغير. والعالم الإسلامي يتلقى عن الغرب والشرق بلا احتراس، وفي نهاية المطاف يجد الداعية نفسه أمام هذه الأفكار. وما كان يمكن تجاهله في عصر صعوبة الحركة والانتقال، أصبح لا يمكن تجاهله في عصر المحطات الفضائية والأقمار الصناعية ووسائل الاتصال الحديثة.

والداعية يعيش في عصر المخترعات العلمية المتطورة، ومنها ما يفيد في دعوته، ومنها ما يعوق دعوته. والداعية الناجح يكتسب من مخترعات عصره ما ينفعه، ويتقي ما يضره.

ولا يقف الداعية مكتوف اليدين أمام الطبيعة، بل يعتبرها مسخرة من الله لخدمته ولنصرة دعوته، وهذه النصرة لا تأتي إلا بعد معرفة هذه الطبيعة عن كثب، من حيث بحارها وأنهارها وجبالها وترايبها وماؤها وحرّها وبردها.

والداعية يعيش وسط كتلة بشرية ذات مذاهب شتى، منها البعيد ومنها القريب، ومنها المعادي ومنها المسالم، لذا كان لابد من معرفة هذه الفرق معرفة علمية موضوعية، توقف الداعية على حجم كل مذهب وتأثيره، وتوقفه على تاريخ نشوئه وأهدافه ووسائله.

إن مراعاة هذه الأمور توصل الداعية إلى بر الأمان والسلامة والنجاح له ولدعوته.

القاعدة السادسة عشرة

في الفرق والفتن والعزلة والجماعة

إن من أعظم العقبات في طريق الدعوة والدعاة أن تختلط الأفهام وتغيب الحقائق أمام النصوص المتعارضة والتأويلات المختلفة والمفاهيم المتناقضة، فيتيه المسلم بين الفرق الهالكة والناجية، وبين العزلة والخلطة، وبين الفتنة التي يفر منها والفتنة التي يبادرها بالهجوم والمقاومة وبين العمل الفردي والعمل الجماعي، ويترتب على كل فهم من هذه الفهوم أعمال ومناهج. ولتخليصها من التعارض والاختلاط كانت هذه القاعدة، وأدعو القارئ الكريم إلى تأملها.

إن الناظر في تاريخ هذه الأمة يجدها قد مرت في حالين عظيمين:

حال الانتصار والتمكين:

حيث وقفت هذه الأمة في مواجهة أعدائها مجتمعين ومتفرقين، وكانت تخرج من كل معركة منتصرة ظافرة، وعدوها مدحورًا مقهورًا.

حال الهزيمة والانهيار:

وكان هذا الحال يوم انهارت حصوننا من الداخل، وتغلب على الأمة نفر من أبنائها مزقوا كيانها الداخلي ونظامها الخارجي.

وقد أخبرنا النبي ﷺ عن هذا الخطر الداهم، وجعله السبب الأعظم

الذي يقوِّض وحدة الأمة وكيانها، فعن ثوبان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإن سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يُسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها - أو قال من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا»^(١). وفي رواية ابن حبان: «وسألته أن لا يلبسنا شيئًا فمنعنيها»^(٢).

وعند ابن ماجه رواية أتم: «وإني سألت الله عز وجل ثلاثًا: أن لا يسלט على أمتي جوعًا فيهلكهم به عامة، وأن لا يلبسهم شيئًا ويذيق بعضهم بأس بعض، وأنه قيل لي: إذا قضيت قضاءً فلا مرد له، وإني لن أسلط على أمتك جوعًا فيهلكهم فيه، ولن أجمع عليهم من بين أقطارها حتى يُفني بعضهم بعضًا ويقتل بعضهم بعضًا. وإذا وضع السيف في أمتي فلن يرفع عنهم إلى يوم القيامة. وإن مما أتخوف على أمتي أئمة مضلين. وستعبد قبائل من أمتي الأوثان. وستلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وإن بين يدي الساعة دجالين كذايين قريبًا من ثلاثين كلهم يزعم أنه نبي، ولن تزال طائفة من أمتي على الحق منصورين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله عز وجل»^(٣).

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢٢١٥)

(٢) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان للهيثمي (ص ٤٥٣).

(٣) سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٠٤).

وكانت الفرقة التي فصل النبي ﷺ أخبارها أعظم ما ابتليت به الأمة والملة فأصبحت الأمة أمماً والملة مللاً.

ولقد كشفت السنّة جوانب كثيرة من مستقبل الأمة من باب الأخبار والتحذير وبيان الداء والدواء، وهذا فتح من الغيب أكرم الله تعالى به نبيه ﷺ زيادة في الأعذار للأمة والإشفاق عليها. ولما كانت هذه الأخبار جملة غير مفرقة على الأحداث والعصور فقد رأيت في ضوء النسق التاريخي والواقع البشري أن أحاول نظمها من جهة، وفهم مصطلحاتها من جهة أخرى.

وسأتناول أحاديث الفرق والأهواء مبيناً معاني الفتنة والعزلة والجماعة:

وإن أجمع حديث في هذا الباب ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «كان الناس يسألون رسول الله صلى على الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر ف جاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد ذلك من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن. قلت: وما دخنه قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله، صفهم لنا، قال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»^(١).

(١) صحيح البخاري، متن فتح الباري (١٣ / ٣٥).

وروي هذا المعنى مفصلاً في حديث آخر، فعن أبي عامر عبد الله بن لُحَيِّ قال: «حججنا مع معاوية بن أبي سفيان فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: إن أهل الكتاب افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة، يعني في الأهواء - كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة. وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلبُ بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله، والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم لغيركم من الناس أخرى أن لا يقوم به»^(١).

وروي في معنى هذا الحديث من طريق أبي هريرة رضي الله عنه قال: «افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة» رواه أبو داود^(٢)، وأخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح^(٣).

ويستفاد من هذه الأحاديث وما يؤيدها من الأحاديث: التحذير من وقوع الأمة في حبائل الفرقة والشتات، ولا سيما إذا كانت الفرقة ناشئة عن اختلاف العقائد والأصول، فهذا النوع من الفرقة ينشئ مللاً وأدياناً، ويخرج من الأمة الواحدة أمماً لا تمت إلى سلفها بصلة. ولا يدخل في الفرقة ذلك الاختلاف في الفروع وتعدد الاجتهادات. ولا تدخل في ذلك مذاهب الفقه ما دام أصحابها يتحرون الدليل ويتفقون على الأصول.

ولا يقال ولا ينبغي أن يُقال، إن أصحاب المذاهب الأربعة، أو غيرهم،

(١) مسند الإمام أحمد (٤/ ١٠٢)

(٢) سنن أبي داود (٤/ ٥).

(٣) الجامع الصحيح للترمذي (٥/ ٢٥).

على الحق ومن عداهم على الباطل، وإنهم ناجون وغيرهم هالك. والضابط في هذا ما ذكره البغدادي في كتاب الفرق بين الفرق: «إن أمة الإسلام تجمع المقربين بحدوث العالم، وتوحيد صانعه، وصفاته، وعدله، وحكمته، ونفي التشبيه عنه، وبنبوة محمد ﷺ ورسالته إلى الكافة، وبتأييد شريعته، وبأن كل ما جاء به حق، وبأن القرآن منبع أحكام الشريعة، وأن الكعبة هي القبلة التي تجب الصلاة إليها، فكل من أقر بذلك ولم يشبهه بدعة تؤدي إلى الكفر فهو السني الموحد»^(١).

قال الإمام ابن تيمية: فأما من كان في قلبه الإيمان بالرسول ﷺ وما جاء به، وقد غلط في بعض ما تأوله من البدع فهذا ليس بكافر أصلاً، والخوارج كانوا من أظهر الناس بدعة وقتالاً للأمة وتكفيراً لها، ولم يكن في الصحابة من يكفرهم، لا علي بن أبي طالب ولا غيره، بل حكموا فيهم بحكمهم في المسلمين الظالمين. ثم قال ابن تيمية: ومن قال: إن الثنتين والسبعين فرقة كل واحد منهم يكفر كفراً ينقل عن الملة فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، رضوان الله عليهم، بل وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة^(٢).

وجاء في العقيدة الطحاوية وشرحها: «ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين. ثم قال الشارح: المراد بقوله أهل قبلتنا: من يدعي الإسلام ويستقبل الكعبة، وإن كان من أهل الأهواء، أو من أهل المعاصي»^(٣).

(١) الفرق بين الفرق، لعبد القاهر البغدادي (ص ١٣).

(٢) فتاوى ابن تيمية (٧/ ٢١٧).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٣١٣).

وما ذهب إليه ابن حجر من القول: «والدعاة على أبواب جهنم من قام في طلب الملك من الخوارج وغيرهم»^(١)، أمر غير مسلم، فالخوارج والمعتزلة والمرجئة وأمثالهم متأولون، أقصى ما يوصفون به أنهم مبتدعة، ولم يُخرجهم علماؤنا من الملة، ولم يقولوا: إنهم من أهل النار، فيما عدا أولئك الغلاة الذين أحلوا المحرمات، أو عبدوا علياً أو اتخذوا لهم نبياً غير محمد ﷺ، كما فعلت القاديانية، أو جعلوا لهم كتاباً غير القرآن الكريم، أو أنكروا معلوماً من الدين بالضرورة^(٢).

وإنما المقصود تلك المذاهب الضالة التي هدمت أركان الإيمان وقوضت دعائم الإسلام، وخربت عقائده ونظمه، وتبنت الإلحاد ودعت الناس إليه، وأطلقت على المنكرات أسماء براقة لتجعلها مألوفة، وأحلت ما حرم الله تعالى، وحرمت ما أحل، وعطلت أحكام القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ وأعلنت على أهل الإيمان حرباً شعواء، ورمت كل مؤمن بتهمة الجمود والرجعية، واتخذت لها أصولاً يرفضها الإسلام جملة وتفصيلاً، وتراها توقر ما حقره الله تعالى، وتحقر ما وقره، فتعتبر الأسود العنسي المتنبي الكذاب رجل ثورة وإصلاح، وتجعل من القرامطة والحشاشين والزنج وأتباع بابك الخرمي حركات تقدم وتحرير.

وهذه المذاهب منها القديم، وكثير منها حديث، فالسبائية والقرامطة والإسماعيلية فرق ضالة عاثت في الأرض الإسلامية فساداً، ونقضت هي وأمثالها الإسلام من أصوله، وادعت إلهية البشر من دون الله تعالى. ثم

(١) فتح الباري لابن حجر (٣٦/١٣).

(٢) الفصل في الملل والنحل لابن حزم (١١٤/٢).

ظهرت البابية والقاديانية والبهائية، ولكل واحدة من هذه الفرق كتاب غير القرآن الكريم ونبي غير محمد ﷺ. ثم ظهرت فرق إلحادية لا تؤمن بدين كالشيعية والماسونية وما تفرع عنهما من المذاهب والاتجاهات.

وأخطر من هذا كله استلام بعض الفرق الضالة الزعامة السياسية والفكرية فقد أشار الحديث الذي رواه حذيفة رضي الله عنه إلى حالتين:

الحالة الأولى:

خير وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ فقال: قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر. وإن الناظر في تاريخ المسلمين ليرى هذه المراحل التي تتميز كل مرحلة منها على سابقتها ولاحققتها. فقد بدأ الإسلام غريباً في مكة، ثم عم خيره وعلت كلمته في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ثم وقعت الفتنة، ثم استقر الأمر لبني أمية، واستقرت الدولة، وامتدت الفتوح، وانتشر الإسلام، وقامت سياسة الدولة على الإسلام، واستمّدت الأحكام من شريعته، وهذا الخير فيه دخن «والدخن الكدورة إلى السواد، فالدخن في الدابة عندما لا يصفو لونها بل يكدره شيء من السواد. وقال أبو عبيدة: تكون القلوب هكذا، لا يصفو لونها بل يكدره شيء من السواد، وقال أبو عبيدة: تكون القلوب هكذا، لا يصفو بعضها لبعض ولا ينصع حبها»^(١) فأما الخير فهو عودة الأمة إلى وحدتها، واستمرار روح الجهاد، والاحتكام للشريعة في الشؤون المختلفة، والدخن الذي خالط هذا الخير ما كان عليه الحكم من تعطيل لمبدأ الشورى، وتبديد المال والإسراف فيه، وما كان يصيب الأمة من المظالم وسفك الدماء بسبب المذهب والمعتقد. وبقي حال المسلمين على هذا

(١) لسان العرب لابن منظور (٦/١٧).

النحو، خير وفيه دخن، إلى أن دالت دولة الإسلام، وقامت دول علمانية أو قريبة من العلمانية، وكانت أحكام الإسلام قبل ذلك سائدة رغم ظهور بعض المنكرات التي لم تصبغ المجتمع بصبغتها، وكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي دوره في المجتمع.

الحالة الثانية:

دخل المسلمون في شتى بلادهم في مرحلة جديدة سيطرت فيها ثقافة الغرب وأخلاقه وانتشرت التيارات الإلحادية، وغزت مؤسسات الدولة، وبُذلت الثقافة، وغيّرت مفاهيم الحياة. وكان دعاة هذا التغيير من أبناء الأمة يتكلمون بلغتها، ويتسبون إليها. وقد انقسم هؤلاء الدعاة إلى شيع وأحزاب وملل شتى. وهذا ما أشار إليه حديث حذيفة: قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله، صفهم لنا، قال هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا.

قال ابن حجر: «أي من قومنا، ومن أهل لساننا وملتنا إشارة إلى أنهم العرب»^(١). وهذا من أعلام النبوة ومعجزاتها، حيث أخبر الحديث عن ظهور هذه الفرق، وفيه إشارة إلى القوميات التي انتشرت في العالم الإسلامي، واتخذت من العرق والقطر أساسين للتجمع والانتماء.

ووصل الأمر في كثير من الأقطار إلى أن تمتطي هذه الأهواء جماهير الشعوب، مدعية أن الشعوب هي التي تختار طريقها، وظهرت مصطلحات: الجماهير، والطبقة الكادحة، والإرادة الشعبية، ونفذت سياسات ضرب القيم الإسلامية بهذا الطريق. وهذه أشد الفتن وأعتاها حيث استطاع دعاة

(١) فتح الباري لابن حجر (١٣/٣٦).

الباطل أن يتستروا بالإرادة الشعبية، ولعل هذه الفتنة هي فتنة الدهماء التي ذكرت في الحديث الذي أخرجه أبو داود، وذكر فيه فتناً أربعاً، ومنها: «ثم فتنة الدهيماء لا تدع أحداً من هذه الأمة إلا لطمته لطمه، فإذا قيل انقضت تمادت، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، ثم يصير الناس إلى فسطاطين: فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه»^(١).

وقد تغلغلت هذه الأهواء بأصحابها كما أخبر الحديث الذي يرويه معاوية، رضي الله عنه: «تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله» قال الشاطبي (ت ٧٩٠): «معنى هذه الرواية أنه عليه الصلاة والسلام أخبر بما يكون في أمته من هذه الأهواء التي افرقوا فيها إلى تلك الفرق، وأنه يكون فيهم أقوام تُداخل تلك الأهواء قلوبهم، حتى لا يمكن في العادة انفصالهم عنها وتوبتهم منها، على حد ما يداخل داء الكلب جسم صاحبه، لا يبقى من ذلك الجسم جزء من أجزائه ولا مفصل ولا غيرهما إلا دخله ذلك الداء، وهو جريان لا يقبل العلاج ولا ينفع فيه الدواء»^(٢).

أما إحصاء هذه الفرق والملل، فقد حاول بعض العلماء حصرها كما فعل البغدادي (ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م) في كتاب الفرق فقال: «فهذه الجملة التي ذكرناها تشتمل على ثنتين وسبعين فرقة، منها عشرون روافض، وعشرون خوارج، وعشرون قدرية، وعشرون مرجئة، وثلاث نجارية، وبكرية، وضرارية، وجهمية، وكرامية، فهذه اثنتان وسبعون فرقة»^(٣).

(١) سنن أبي داود (٥/ ٤٤٣).

(٢) الاعتصام للشاطبي (٢/ ١٥٤).

(٣) الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي ص ٢٥، ويلاحظ أن العدد هنا يصل إلى ٩٥ فرقة.

ولكن هذا الإحصاء لا يسلم، وعليه مآخذ:

الأولى: أنه خلط بين الفرق الخارجة عن الإسلام وبين الداخلة فيه.

الثاني: أنه يتكلم عن الفرق حتى عصره، وكأن عجلة الزمن قد توقفت، ولم تنشأ فرق جديدة، علمًا بأن فرقًا كثيرة نشأت بعد البغدادي ولو عايشها لأدخلها في حسابه. وينبغي أن يترك الشراح والمفسرون نصيبًا كبيرًا للأحداث الواقعية التي تفسر النص وتشرحه.

الثالث: أنه ذكر ما يزيد عن تسعين فرقة، ثم قال فهذه ثنتان وسبعون فرقة.

موقف المسلم من هذه الفرق:

أما موقف المسلم من هذه الفرق فذو شقين سلبي وإيجابي. أما السلبي فعليه أن يعتزل هذه الفرق الضالة، حتى لا يصيبه الداء الذي أصاب أهلها؛ ولأن مخالطتهم مخالطة أهل النار ودعاتها. وأما الإيجابي فالبحث عن جماعة المسلمين والاعتصام بها.

وليست العزلة عزلة الخروج من المجتمع إلى البراري والقفار وقمم الجبال؛ لأن هذا النوع من العزلة يعطي الفرصة لأصحاب الأهواء كي يعمموها ويشيعوها في المجتمع، ويستأثروا بالتوجيه والقيادة، وفي ذلك خذلان للحق وأهله. ولا بد من التنبيه على أمر خطير هو ذلك الخطأ الناشئ عن تعميم المصطلحات على الحالات المتناقضة المتباينة، وأن لا يقدر لكل حالة قدرها، وأن لا تؤخذ كل كلمة في إطارها المناسب، كأن نأخذ مفهوم العزلة عند سلف الأمة فنعمّمه على جميع الظروف والأحوال، فيقال إن ابن

عمر رضي الله عنه وسعد بن أبي وقاص وأبا بكرة قد اعتزلوا الفتنة، ثم يقال: فَعُلْ هؤلاء الأصحاب دليل يشهد لمن عزم على ترك المجتمع، ونجد الإمام البخاري يترجم لهذا باب خاص يقول: «التعرب في الفتنة: أي اللحاق بالأعراب والبادية عند فشو الفتن».

وقد أخرج عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أنه دخل على الحجاج فقال: يا ابن الأكوع أرتددت على عقبيك، تعربت؟ قال: لا، ولكن رسول الله ﷺ أذن لي في البدو. قال ابن حجر: «التعرب أي السكنى مع الأعراب، وهو أن ينتقل المهاجر من البلد التي هاجر إليها، فيسكن البدو، فيرجع بعد هجرته أعرابياً، وكان إذ ذاك محرماً إلا أن أذن له الشارع في ذلك»^(١). فالأصل إذن منع المهاجر من العزلة في البراري والقفار أو اللحاق بالبادية.

وإننا إذا نظرنا إلى الحكمة في منع المهاجر من التعرب وجدنا أن الهجرة إنما شرعت لنصرة الإسلام والمسلمين، ولدفع الكفر والنفاق عن المجتمع، فإذا ترك المسلم المجتمع تحت وطأة أصحاب الفتن فإنه يكون قد أسهم في هذا المنكر، وساعد على استحكامه. قال ابن حجر: «وقيل يمنع (أي التعرب) في زمن الفتنة لما فيه من خذلان أهل الحق»^(٢).

ومن رغب في العزلة من سلف الأمة فإنه عنى عدم الاستكثار من الأصحاب والمبالغة في مألوف العادات، والإسراف في الأسفار والمباحات. قال الإمام أبو سليمان الخطابي: «ولسنا نريد بهذه العزلة التي نختارها مفارقة الناس في الجماعات والجمعات، وترك حقوقهم في العبادات، وإفشاء السلام

(١) صحيح البخاري، متن فتح الباري (٤٠ / ١٣).

(٢) فتح الباري (٤٠ / ١٣).

ورد التحيات، وما جرى مجراها من الحقوق الواجبة لهم، وصنائع السنن والعادات المستحسنة فيما بينهم فإنها مستثناة بشرائطها، جارية على سبلها، ما لم يحل دونها حائل شغل، ولا يمنع عنها مانع عذر، إنما نريد بالعزلة ترك فضول الصحبة، ونبذ الزيادة منها، وحط العلاوة التي لا حاجة بها إليها^(١).

ارتباط العزلة بنوع الفتنة:

وهناك مسألة لا بد من بيانها قبل الفراغ من موضوع العزلة، وهي تحديد نوع الفتنة الداعية إلى ترك المجتمع واعتزاله وعدم المشاركة في أحداثه، أو الداعية إلى الثبات في مواقع التأثير لمقاومة الفتن ومجابتها.

فتنة التنافس على الملك:

فقد أخبر النبي ﷺ عن وقوع الفتن وتكاثرها حتى كأنها القطر لا يترك موضعاً إلا أصابه، فقد أخرج البخاري عن أسامة بن زيد قال: «أشرف النبي ﷺ على أطم من أطام المدينة فقال: هل ترون ما أرى؟ قالوا: لا، قال: فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كمواقع القطر»^(٢).

وكان مقتل عثمان رضي الله عنه أول فتنة وقعت، وتلاها القتال بين علي وعائشة رضي الله عنهما، ثم صفين، وقد اختلفت اجتهادات الصحابة في ترجيح صاحب الحق، وإن كان الأكثرون على أن علياً رضي الله عنه هو صاحب الأمر، وأن معاوية مجتهد مخطئ له أجر واحد. ثم وقعت فتن بعد ذلك كان الباعث عليها التنافس على الحكم والسلطان وهذا من قبيل الأثرة

(١) العزلة للخطابي، ص ٦.

(٢) صحيح البخاري (متن فتح الباري) (١٣ / ١١).

التي أخبر عنها النبي ﷺ، فقد أخرج البخاري عن أسيد بن حُضير «أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال يا رسول الله استعملت فلاناً ولم تستعملني، قال: إنكم سترون بعدي أثره، فاصبروا حتى تلقوني»^(١). وقد جاء معظم الخلفاء العباسيين وسلاطين المماليك وغيرهم إلى الحكم عن طريق هذه الأثره، وهذا علم من أعلام النبوة، إلا أن هذه الفتن لم تخرج المجتمع من الإسلام، وبقي استمداد الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة، ويمكننا حمل ما أخرجه البخاري على هذا حيث قال: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، فمن وجد فيها ملجأ أو معاذاً فليعذ به»^(٢). وفي رواية مسلم لهذا الحديث: «إذا نزلت أو وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كان له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، قال: فقال: يا رسول الله إن لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال: يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاء، اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ فقال رجل: يا رسول الله أرايت إن أكرهت حتى يُنطَلَقَ بي إلى أحد الصفين، أو إحدى الفئتين، فضر بني رجل بسيفه، أويجيء سهم فيقتلني؟ قال: يبوء بإثمه وإثمك ويكون من أصحاب النار»^(٣).

وهو ما ذهب إليه ابن حجر في حمل هذه الفتنة على الاختلاف في طلب الملك، حيث لا يعلم المحقق من المبتطل. ونقل ابن حجر كلاماً للطبري

(١) صحيح البخاري (متن فتح الباري) (٥/١٣).

(٢) المرجع السابق (٥/١٣).

(٣) صحيح مسلم، (٤/٢٢١٣).

يقول فيه: والصواب أن يُقال إن الفتنة أصلها الابتلاء، وإنكار المنكر واجب على كل من قدر عليه، فمن أعان المحق أصاب، ومن أعان المخطئ أخطأ، وإن أشكل الأمر فهي الحالة التي ورد النهي عن القتال فيها.

ومن الحديث الذي رواه أبو بكر نعلم أن الفرار من الفتنة عندما تكون بين صفين من المسلمين حيث يشتبه الحق بالباطل، ولا يُعرف المحق من المبطل.

وقد جاء هذا الفهم صريحاً عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، فقد أخرج البخاري: عن أبي المنهال، قال: «لما كان ابن زياد ومروان وثب ابن الزبير بمكة، ووثب القراء بالبصرة، فانطلقت مع أبي إلى أبي برزة الأسلمي حتى دخلنا عليه في داره وهو جالس في ظل عِلْيَةٍ له من قصب، فجلسنا إليه فأنشأ أبي يستطعمه الحديث، فقال: يا أبا برزة ألا ترى ما وقع فيه الناس؟ فأول شيء سمعته تكلم به: إني احتسبت عند الله أني أصبحت ساخطاً على أحياء قريش، إنكم يا معشر العرب كنتم على الحال الذي علمتم من الذلة والقلّة والضلالة وإن الله أنقذكم بالإسلام، وبمحمد عليه الصلاة والسلام، حتى بلغ بكم ما ترون، وهذه الدنيا التي أفسدت بينكم، إن ذاك الذي بالشام والله إن يقاتل إلا على الدنيا، وإن هؤلاء الذين بين أظهركم والله إن يُقاتلون إلا على الدنيا، وإن ذاك الذي بمكة والله إن يُقاتل إلا على الدنيا»^(١).

ويبدو من هذا النص أن أبا برزة رضي الله عنه كان يرى اعتزال الفتنة؛ لأنه لا يوجد صاحب الأمر المحق، وكان ابن عمر رضي الله عنهما قد سلك مثل هذا السلوك عندما اعتزل ما حدث بين عبد الملك بن مروان وابن الزبير، فقد

(١) صحيح البخاري (متن فتح الباري) (٦٨/١٣).

أخرج البخاري عن سعيد بن جبير قال: «خرج علينا عبد الله ابن عمر فرجونا أن يحدثنا حديثاً حسناً، قال: فبادرنا إليه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن حدثنا عن القتال في الفتنة، والله يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، فقال: هل تدري ما الفتنة ثكلتك أمك؟ إنما كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول في دينهم فتنة، وليس كقتالكم على الملك»^(١)، وفي رواية أخرى: «فكان الرجل يُفتن عن دينه إما قتلوه وإما يعذبونه حتى كثر الإسلام، فلم تكن فتنة»^(٢)، أي لم يبق فتنة من أحد من الكفار لأحد من المؤمنين.

وأخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أتاها رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد ضيّعوا وأنت ابن عمر صاحب رسول الله ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أن الله حرم دم أخي، فقالا: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله^(٣).

ومن خلال هذه الروايات نتعرف على نوعين من الفتن. ولابد من التركيز على الفتنة الكبرى التي تجتاح الدين وتهدد الإيمان، وهي التي لا مهادنة معها.

الفتنة بمعنى الكفر:

وهي الفتنة التي يكون هدفها القضاء على الإسلام والإيمان، وهي أشد أنواع الفتن وأولادها بالدفع والمقاومة، ولا يجوز للمؤمن أن يهادنها أو

(١) صحيح البخاري (متن فتح الباري) (١٣/٤٥).

(٢) المرجع السابق (١٨/١٨٤).

(٣) المرجع السابق (٨/١٨٣).

يجاريها، وهي الفتنة الواردة في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

قال الرازي في تفسيره «المراد بالفتنة ههنا وجوهاً: أحدها أنها الشرك والكفر، قالوا: كانت فتنهم أنهم كانوا يضربون ويؤذون أصحاب النبي ﷺ بمكة حتى ذهبوا إلى الحبشة، ثم واطبوا على ذلك الإيذاء حتى ذهبوا إلى المدينة. وكان غرضهم من إثارة تلك الفتنة أن يتركوا دينهم ويرجعوا كفاراً، فأنزل الله تعالى هذه الآية. والمعنى: قاتلوهم حتى تظهروا عليهم فلا يفتنوكم عن دينهم فلا تقعوا في الشرك»^(١).

وهذه الفتنة أكبر جرماً من القتل؛ لأنها فساد في الأرض يؤدي إلى الظلم والقتل، يقول الرازي: «وإنما جعل الكفر أعظم من القتل؛ لأن الكفر ذنب يستحق صاحبه به العقاب الدائم، والقتل ليس كذلك، والكفر يخرج صاحبه من الملة، والقتل ليس كذلك»^(٢).

والقرآن الكريم يحدد الحالة التي تنتهي الفتنة بها، وهي استقرار أمر الدين واستمراره، وكونه كله لله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾، وهذه غاية شريفة، لا يتوقف الجهاد دونها، يقول الرازي: «ليس بين الشرك وبين أن يكون الدين كله لله واسطة، فصار التقدير: فقاتلوهم حتى يزول الكفر ويثبت الإسلام»^(٣).

(١) التفسير الكبير للرازي، (٥/١٣٢).

(٢) المرجع السابق (٥/١٣٠).

(٣) المرجع السابق (٥/١٣٣).

وقد وقع هذا النوع من الفتن، ووصل الحال بالمسلمين في كثير من أقطارهم إلى اختيار مناهج ونظم لا تمت إلى الإسلام بصلة، بل تخالفه كل المخالفة، وأقيمت شؤون الحياة على مبادئ مستوردة، وأمسك بعض الملحدين والعلمانيين بدفة القيادة والتوجيه، وانتكست بعض فئات الأمة فارتدت على أعقابها، وعملت على إقصاء الإسلام عن سائر شؤون الحياة وأعلنت حرباً على كل مسلم. وما حذر منه النبي ﷺ أصبح حقيقة واقعة في بعض بلاد المسلمين، وذلك قوله: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»^(١).

ومثل هذه الفتن تلاحق المسلم ولا تدعه يسلم من شرها، سواء فرَّ إلى شواحق الجبال أو إلى أعماق الكهوف، ولا يدفعها الخروج من المجتمع، والاعتكاف في المساجد.

الموقف الإيجابي من هذه الفتن:

وأما الموقف الإيجابي فهو البحث عن الجماعة المؤمنة والطائفة الظاهرة وإعطاؤها ثمرة الجهد وصادق الانتماء. وهذا أمر لا خيار للمؤمن فيه، وهو قول النبي ﷺ لحذيفة «تلتزم جماعة المسلمين وإمامهم» قال ابن حجر: «وورد الأمر بلزوم الجماعة في هذه أحاديث، منها ما أخرجه الترمذي مصححاً، وفيه: وأنا آمركم بخمس أمرني الله بهن: السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة، فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه. وفي خطبة عمر المشهورة التي خطبها بالجابية: فإن عليكم بالجماعة

(١) صحيح البخاري (متن فتح الباري) ١٣/٢٣.

وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد»^(١).

وقد يتساءل القارئ عن وجود هذه الجماعة. وقد يتبادر إلى الأذهان خلو المجتمع من مثل هذه الجماعة، والجواب على ذلك خبر الصادق المصدوق عليه السلام الذي قال: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك»^(٢).

وفي رواية أخرى «حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس». وفي رواية المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: «لن يزال قومٌ من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»^(٣).

وروايات هذا الحديث كثيرة، وألفاظه متقاربة ولها بمجموعها دلالات، منها:

(أ) أن هذه الأمة لن تخلو من فئة قائمة بأمر الله تعالى، وفق ما جاء به محمد عليه السلام، وهذه الفئة يحفظ الله بها الذكر، ويحقق بها إقامة الحجة على الخلق، ويزيل بها العذر، وينير بها طريق الهداية والرشاد، قال ابن حزم: «فَصَحَّ أن أهل كل عصر لا يجوز أن يخلوا من أن يكون فيهم قائل بالحق»^(٤).

(ب) وفي الوقت ذاته تكون فئات كثيرة قد تخلت عن دين الله، ويكون

(١) فتح الباري لابن حجر (١٣/٣١٦).

(٢) صحيح البخاري (متن فتح الباري) (٦/٦٣٢).

(٣) صحيح مسلم (٣/١٥٢٣).

(٤) المحلي لابن حزم (١/٤٧).

هذا التخلي إما بالإنصراف عنه إلى الأهواء الضالة والمبادئ المنحرفة، وهذا شأن المخالفين الذين يكدون لكل جماعة مؤمنة. وقد يكون التخلي بإشغال الحياة في طلب المتاع الزائل، وبالبحث عن وسائل الراحة والانهماك في الشهوات، وهذا شأن القطاع الأكبر من الناس الذين لا يتجاوز تفكيرهم حدود مصالحهم الشخصية. وهكذا فإن الجماعة المؤمنة تقع بين المخالفين والخاذلين.

(ج) وإن الجماعة المؤمنة تكون ظاهرة على من عاداها وناوأها وخذلها، وهي المؤيدة بنصر الله تعالى، لا يضرها أحد من أعدائها. ومعنى قول النبي ﷺ «وهم ظاهرون»: قال ابن حجر: «أي غالبون، أو المراد بالظهور أنهم غير مستترين بل مشهورون. ثم قال ابن حجر: والأول أولى»^(١)، قال همام: ويبدو أن الثاني أولى، وأن الظهور هو ظهور وجود واشتهار وإصرار على الحق وثبات عليه، ويشهد لهذا المعنى الرواية التي أخرجها البخاري: «ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة، أو حتى يأتي أمر الله»^(٢)، ولا يلزم من الاستقامة الغلبة بالقوة المادية، بل تكون الاستقامة ولو كانت الجماعة مستضعفة مضطهدة، ولكنها ثابتة على الحق.

ولعل ابن حجر رجح معنى الغلبة لما رأى من غلبة بعض أهل الحق على قطر أو ناحية من زمن النبي ﷺ إلى زمانه. ولو عاش في العصور المتأخرة لرأى كيف غلب أهل الحق من قبل أهل الباطل، ولكن أهل الحق مصرون على حقهم، ثابتون عليه، معروفون به، ولا تقوى الأهواء على اقتلاعهم من

(١) فتح الباري لابن حجر (١٣/٢٩٤).

(٢) صحيح البخاري (متن فتح الباري) (١٣/٢٩٣).

فكرهم، ولا يضيرهم ما يجدون من الصعاب والعقبات وصنوف الأذى وألوان الاتهامات، بل يواصلون سيرهم، ويراهم الناس قائمين بأمر الله تعالى. قال النووي: «لا يزالون على الحق حتى تقبضهم هذه الريح اللينة قرب القيامة»^(١). لقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه ظاهرين على أهل مكة من المشركين رغم ما كانوا يلاقونه من الأذى والمطاردة، وكذلك حال الجماعة المؤمنة القائمة بأمر الله فهي ظاهرة وإن لم تكن لها السيادة السياسية والاجتماعية.

تعيين الجماعة وهل هي واحدة؟

لا خلاف في أن جماعة المسلمين في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين هي السواد الأعظم من الأمة الذي يحكم بشرع الله تعالى. وظلت الأمة في مرحلة الجماعة التي تمثلها دولة إسلامية قوية إلى أن دالت دولة الإسلام، فانفرط بذلك عقد الأمة الواحدة، ونشأت فيها جماعات شتى.

ويبدو أن بعض العلماء قد نظروا إلى خصوص النص بفئة، حتى ولو كانت الأمة في خير قرونها، وهاهو الإمام أحمد وعلي بن المديني وأبو عبد الله الحاكم يحملون النص على أن المقصود هم أهل الحديث. وقد نقل الحاكم عن الإمام أحمد قوله: «إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم»، وقال الحاكم: «فلقد أحسن أحمد ابن حنبل في تفسير هذا الخبر أن الطائفة المنصورة التي يُرفع الخذلان عنهم إلى قيامة الساعة هم أصحاب الحديث»^(٢).

(١) المنهاج في شرح مسلم للنووي (٢/١٣٢).

(٢) معرفة علوم الحديث للحاكم، (ص ٢).

ورغم الدور العظيم الذي قام به المحدثون في خدمة السنة النبوية وصيانتها، إلا أننا لا نستطيع القول بأن هذه الطائفة مستمرة إلى قيام الساعة، فقد توقف عطاؤها واجتهادها، فيما عدا أفراد قلائل، كما توقف عطاء غيرها منذ مئات السنين، والأصل في نص الحديث الاستمرار، وبقاء الطائفة حتى قبيل الساعة.

أما الإمام محمد عبده فقد ذهب مذهباً بعيداً عندما استعرض حديث الفرق ثم قال: «إن هذا الحديث قد أفادنا أنه يكون في الأمة فرق متفرقة، وأن الناجي منهم واحدة، وكون الأمة قد حصل فيها افتراق على فرق شتى، تبلغ العدد المذكور أو لا تبلغه ثابت، وقد وقع لا محالة، وكون الناجي منهم واحدة أيضاً حق لا كلام فيه.. ثم قال: أمّا تعيين أي فرقة هي الفرقة الناجية أي التي تكون على ما النبي عليه وأصحابه فلم يتبين لي إلى الآن، فإن كل طائفة ممن يدعن لبنينا بالرسالة تذهب تجعل نفسها على ما النبي عليه وأصحابه»^(١).

وقد اعترض الشيخ رشيد رضا على أستاذه في هذا المذهب، وعزاه إلى تأثر أستاذه بالآراء الفلسفية والكلامية، وإلى حرصه على جمع كلمة المسلمين، وأنه كان ينقصه سعة الاطلاع على كتب الحديث. ثم عقب على مذهب أستاذه، بأن أهل الحديث وعلماء الأثر المهتمين بهدي السلف هم هذه الطائفة، وأنهم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين، وأنهم لا يمكن أن يكونوا أتباع أحد من علماء الكلام المبتدع، سواء منهم من ضر ومن نفع،

(١) شرح العقائد العضدية لمحمد عبده، (ص ٥).

ولا من المقلدين في الفروع أيضًا^(١).

وذهب صاحب زاد المسلم إلى أن هذه الطائفة هي الفئة المجاهدة في فلسطين، وذلك في زمان المؤلف^(٢).

أما النووي فقد ذهب مذهباً أعمّ من كل ما سبق فقال: «إن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين منهم شجعان مقاتلون، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد آملون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض»^(٣).

قال همام: والذي يظهر لي أن هذه الأقوال محصورة بأزمان قائلها، ففي زمن الإمام أحمد كان المحدثون حملة السنة والمنافحين عنها أمام الفلسفة اليونانية والهندية، وأمام الفرق الباطنية، وقاموا بجهد هائل في جمع الحديث وتصنيفه وتمييز صحيحه من سقيم. ولكن هذا الدور الريادي للمحدثين توقف أو كاد أن يتوقف مع ظهور الكتب المصنفة في الأبواب والمسانيد والمعاجم والتراجم والتواريخ، وساد التقليد في العصور المتأخرة كما هو الحال في سائر أبواب المعارف الإسلامية، ولا يمكننا أن نقول أن فئة المحدثين هي الفئة الظاهرة إلى أن يأتي الله بأمره أي قبيل يوم القيامة، ووجود أفراد قلائل من المحدثين لا يعني وجود طائفة فاعلة في المجتمع، ولا بأس أن يُقال إن المحدثين كانوا يشكلون بعض هذه الطائفة في وقت

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا (٦/٢٢٢).

(٢) زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم للشنقيطي (٥/١٩٣).

(٣) المنهاج في شرح مسلم للنووي (٢/١٣٢).

سابق.

وإذا قال قائل إن الصوفية هي الطائفة الظاهرة، فإن قوله يُحمل على الزمان الذي كانت فيه هذه الفئة فاعلة في المجتمع، فقد أدت الصوفية دورًا رياديًا زمن الحروب الصليبية، وكذلك كان دورها رياديًا في إفريقيا، عندما وقفت في وجه الوثنية ثم في وجه الحضارة الغربية، وكانت الربط والزوايا قواعد انطلاق، انطلق منها الإسلام إلى قلب إفريقيا.

وإذا قيل: إن المجاهدين الفلسطينيين الذين وقفوا في وجه الإنجليز واليهود هم هذه الطائفة فإن ذلك ممكن في ذلك الزمان عندما ألف الشنقيطي كتابه زاد المسلم، فيكونون من هذه الطائفة، ويمكن أن يُقال ذلك في كل من حمل راية جهاد في سبيل الله في فلسطين، وهي الآن أظهر وأوضح بقيام حركة حماس وغيرها من الفصائل المجاهدة.

والذي يحل هذا الإشكال هو البحث عن طائفة متنوعة في الكفاءات والطاقات والإمكانات والأفراد، متحدة في الغاية والهدف. وما ذهب إليه النووي قريب من هذا، وينقص عبارته عنصر التعميم الزماني.

وقوله: «أنواع من المؤمنين منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد آملون بالمعروف وناهون عن المنكر» بيان لهذا التنوع، بل فتح الباب لأنواع أخرى عندما قال: «ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير».

وإذا أدخلنا في حسابنا الأحوال التي تعيشها الأمة منذ قرن من الزمان فإننا نجد الأمة قد ابتعدت في الثقافة والفكر وفي النظم والتشريع عن الإسلام

وانقسمت الأمة إلى فئات ثلاث:

فئة تحارب الإسلام، وتستعين بحربه بجميع التيارات الوافدة والأفكار المنحرفة. وفئة تنافح عن الإسلام وتطالب بتحكيم القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ في حياة الأمة. وفئة صرفت جهدها إلى هم المعاش وتلبية الحاجات، ولا تعتني بالصراع بين الحق والباطل، إلا إذا تعرضت مصالحها للتوقف.

ويمكننا أن نقول بكل ثقة إن هذه الفئة المنافحة عن الإسلام الداعية إلى تحكيم شريعته، القائمة بأمر الله تعالى هي الطائفة الظاهرة، وهي متنوعة في الطاقات والإمكانات، متحدة في الأهداف والغايات، ولا تكون هذه الطائفة على المستوى المطلوب إلا بالعلم والفقه الذي يساعد هذه الطائفة على فهم أحكام الشريعة ومعرفة عقيدة الإسلام ونظمه وكيفية الدعوة إليه. ولا تكون الجماعة جماعة إلا إذا وجد الولاء بين أفرادها، ولا تكون جماعة إلا إذا قامت على السمع والطاعة والالتزام.

فالعلم الشرعي شرط من شروطها، والعمل الشرعي شرط كذلك، والولاء والالتزام صفتان لازمتان لها. وقد جاءت بعض روايات الحديث التي يفهم منها شرط العلم والفقه كالرواية التي أخرجها البخاري وجاء فيها: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر ربها، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»^(١). وفي رواية أخرى: «ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة أو حتى

(١) صحيح البخاري (متن فتح الباري) (١/١٦٤).

يأتي أمر الله^(١). وقد فهم الكرماني من هذه الرواية أن من جملة الاستقامة التفقه؛ لأنه الأصل، ثم قال: وبهذا ترتبط الأخبار المذكورة^(٢).

وقد ترجم الإمام البخاري لباب من أبواب كتابه فقال: «باب وكذلك جعلناكم أمة وسطاً، وما أمر النبي ﷺ من لزوم الجماعة وهم أهل العلم»^(٣).

قال ابن حجر: «فعرف أن المراد بالوصف المذكور أهل السنة والجماعة، وهم أهل العلم الشرعي، ومن سواهم ولو نسب إلى العلم فهي نسبة صورية لا حقيقية»^(٤).

وبقي أن يُقال إن عامة الناس لا تدخل في هذه الطائفة إلا إذا تفاعلت مع الإسلام وأحكامه، ودخلت في حلبة الصراع لنصرة الحق وأهله، وإذا قيل: ما المراد من قوله عليه الصلاة والسلام «فعلیکم بالسواد الأعظم»؟ وهل المراد عامة الناس وجمهورهم؟ أم فئة من الناس وخاصتهم؟.

فيجيب على هذا الإمام الشاطبي في كتابه الاعتصام حيث يقول: روى أبو نعیم عن محمد بن القاسم الطوسي قال: سمعت إسحاق بن راهويه، وذكر في حديث رفعه إلى النبي ﷺ قال: إن الله لم يكن ليجمع أمة محمد على ضلالة، فإذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم. فقال رجل: يا أبا يعقوب، من السواد الأعظم؟ فقال: محمد بن أسلم وأصحابه ومن تبعهم، ثم قال: سأل رجل ابن المبارك: من السواد الأعظم؟ قال: أبو حمزة

(١) صحيح البخاري (متن فتح الباري) (٢٩٣/١٣).

(٢) فتح الباري (٢٩٣/١٣).

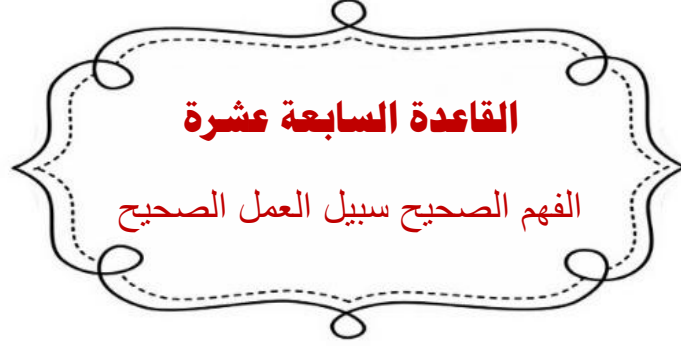
(٣) صحيح البخاري (متن فتح الباري) (٣١٦/١٣).

(٤) فتح الباري (٣١٦/١٣).

السكري. ثم قال: في ذلك الزمان (يعني أبا حمزة) وفي زماننا محمد بن أسلم ومن تبعه، ثم قال إسحاق: لو سألت الجهاد عن السواد الأعظم، لقالوا جماعة الناس، ولا يعلمون أن الجماعة عالم متمسك بأثر النبي ﷺ وطريقه، فما كان معه وتبعه فهو الجماعة. ثم قال الشاطبي: فانظر في حكايته تتبين غلط من ظن أن الجماعة هي جماعة الناس، وإن لم يكن فيهم عالم. وهو وهم العوام، لا فهم العلماء فليثبت الموفق في هذه المزمة قدمه^(١).

وما ذهب إليه إسحاق بن راهويه فهم عميق لدور الجماعة المسلمة والطائفة الظاهرة التي تتمتع بدرجة من الوعي تجعلها تستوعب شريعة الإسلام وسنة النبي ﷺ وتقف في وجه التحديات الثقافية والاجتماعية والسياسية. ولا يخرج المسلمون من حالة الغناء إلى مجتمع الفتح والنصر إلا عن طريق هذه الجماعة المؤمنة والطائفة الملتزمة بما عليه النبي ﷺ وأصحابه.

(١) الاعتصام للشاطبي (١٥٣/٢).



الفهم لغة:

بين صاحب لسان العرب معنى كلمة الفهم، فقال: معرفتك الشيء بالقلب^(١). وعندما تعرض صاحب اللسان لكلمة «علم» قال: علمت الشيء، أعلمه، علمًا: عرفت^(٢).

وهذا يعني أن كلمة «الفهم» فيها معنى زائد على كلمة «العلم»، فالعلم إدراك يقل عن الفهم الذي هو إدراك القلب، وهذا يعني أن كلمة الفهم تشارك كلمة العلم في موضوع المعرفة وتزيد عليها في أمر إقامة نوع علاقة مع الأشياء، من خلال الواقع وممارسة المعارف، مع إدراك أبعادها وعلاقاتها، لتصبح بعد هذه الممارسة كأنها جزء من الذات.

وقد اعتدنا على أن لا نستخدم كلمة «فهمت» إلا بعد استقرار المعلومات والوصول إلى تصور كامل لها، وتطبيقها للاطلاع على جوانب لا نصل إليها بمجرد المعرفة، فالطالب لا يفهم المعادلة الكيماوية بمجرد إدراك رموزها، ولو ذكر المعلم نتائج التفاعل نظريًا، ما لم يذهب إلى المختبر ليشاهد بنفسه تلك المعادلة على شكل مواد تتفاعل، وتنتج مواد

(١) لسان العرب (١٥/٣٥٧).

(٢) لسان العرب (١٥/٣١١).

جديدة يراها الطالب بعينه، ويسمع أصواتاً جديدة، يسمعها بأذنيه، ويشم روائح جديدة، وعندئذ تتحول قراءته للمعادلة إلى قراءة جديدة، وهي قراءة فهم؛ لأنه يدرك بوجدانه وقلبه أشياء كثيرة لا يتم تسجيلها أو التعبير عنها بالرموز، وعندما تتعدد الوسائل المدركة وتكثر فإنها تحتاج إلى معرفة بأفرادها، وإلى معرفة أخرى بالعلاقات فيما بينها.

فإذا اقتصر على النوع الأول من المعرفة فإنها تكون معرفة تحليلية جزئية، والمعرفة التحليلية الجزئية هي سبب من أسباب تخلف الفهم، فقد ابتلى المسلم المعاصر بهذا النوع من المعرفة الذي قد يظهر فيها العلم في أعلى صورته، إلى جانب الجهل في أسوأ صورته. فقد رأينا فقهاء وعلماء لهم حظ كبير من العلم في تخصصاتهم ولكنهم لا يستوعبون حركة هذا التخصص ضمن مجموعة المعارف، ولا يركزون على مكان هذا التخصص ضمن الأمكنة الأخرى، ولا يبحثون عن العلاقات والروابط بين هذا التخصص والتخصصات الأخرى، ولا يعيشون بتخصصهم في البناء المتكامل لقضايا الإسلام.

وتكمن خطورة هذا النوع من المعرفة في ظهور مرض نستطيع أن نسميه «تضخم الفهم» وهو مرض لا بد أن يُنتج بالمقابل «ضمور الفهم»، فهذا المسلم المستغرق بنشاط واحد ونوع واحد من المعارف الإسلامية، يصاب باستيلاء هذا النوع عليه، فيظن أن الأمور كلها مبنية عليه ومستمدة منه، وليس هذا الضرب من الخلل أو المرض حديثاً على الأمة بل هو قديم، حيث كان بعض العلماء يرى العلم كله في الفقه وآخرون يرون العلم كله في الحديث، وغيرهم يرون العلم كله في التفسير، ونشأت مذاهب جديدة،

بعضها يرى الحل كله في التربية الخلقية والتهذيب، وبعضها يرى الخلل كله في التفكير السياسي، ويكون الحل في هذا المجال، وبعضها يرى الحل كله في العمل العسكري، إلى غير ذلك من مظاهر تضخم الفهم وضموره.

أركان الفهم:

وخروجًا من أزمت الفهم وأمراضه لابد من تحليل منطقي لأركان الفهم كي نتجاوز مرحلة المعرفة الجزئية إلى مرحلة المعرفة الكلية، وكي نخرج من المرحلة الذرية التي تظهر فيها المعارف على شكل ذرات متناثرة، وهي الحالة التي يعاني منها المسلمون في الفكر وفي السلوك على السواء، وهذا يساعدنا على علاج المظاهر الاجتماعية والسلوكية بعد معالجة الأساس النظري والفكري، وفي ضوء هذا التحليل يمكننا أن نضع العلاج لكثير من الأمراض، كما كان يُنسب إلى الشيخ محمد عبده قوله: «ما أقوى المسلمين أفرادًا وأضعفهم جماعة، وما أعظم الإسلام وأضعف المسلمين».

وهذا المرض لابد أن يكون ناشئًا عن خلل في معادلة الفهم بأن يكون الإسلام بوضعه النظري المفرق، لا بوضعه النظري المركب وهو السائد في العقول والنفوس.

وإنه لمن الضروري أن أشير إلى ضرورة فرز مرحلة الفهم السقيم من مرحلة الفهم السليم في التاريخ الإسلامي، وإن كانت الحاجة ماسة اليوم إلى استنباط الفهم السليم؛ لأن هذا الفرز يساعدنا على فهم التاريخ الإسلامي ومعرفة أسرار القوة والضعف فيه، إذ لم يعد يجدي أن يُكتفى بالقول إن عصر النبوة والخلافة الراشدة هو عصر قوة ونشاط، والعصور التالية عصور قلّ فيها النشاط إلى أن وصل الحال إلى ما يُسمى بعصر الانحطاط، فلا بد

من تحليل الفهم واستحداث معايير لهذا الفهم كي يتمكن من تجاوز عصور الانحطاط إلى عصور العمل والنشاط، وبذلك فقط نستطيع أن نتجاوز تلك الهوة السحيقة بين العصور الأولى والعصر الحديث.

خارطة الفهم:

ولفهم أركان الفهم فإننا نصور الفهم بخارطة جغرافية لا بد أن تجتمع فيها أركان ثلاثة:

الركن الأول:

اشتمال هذه الخارطة على جميع الأجزاء من المدن والقرى والتضاريس والطرق والجبال والأنهار، وتكون هذه الخارطة معبرة عما ترمز إليه بمقدار اشتمالها على مكونات ما ترمز إليه.

وخارطة الفهم الإسلامي لا بد أن تشتمل على مكونات الإسلام، فإذا كانت هذه الخارطة متكاملة كان الفهم متكاملًا، وبمقدار نقصها يكون الفهم ناقصًا. والجدير بالذكر أن نقص الفهم يؤدي إلى نقص في السلوك والعمل، بل وفي التصور، ويقود بالتالي إلى فهم آخر يُخرج صاحبه عن الصراط المستقيم، فلا يصل صاحب هذا الفهم الناقص إلى الأهداف المتوخاة.

إن بعض العاملين للإسلام يعانون من فشل ناشئ عن نقص خارطة فهمهم، فعندما يطرح المسلم فكره الإسلامي خاليًا من تصور الحكم والسياسة، أو خاليًا من تربية النفس وتزكية الروح، أو خاليًا من تربية العقل وتنشيط الفكر، أو خاليًا من تربية البدن وتقوية الأجساد، أو مركزًا على صلاح الفرد بعيدًا عن صلاح المجتمع فإن مثل هؤلاء جميعًا يشكلون أزمة

فهم لا تسبب تأخير المسيرة فقط، بل قد تؤدي إلى جنوح المسيرة وشطط يخرج عن الصراط السوي.

إن شمولية الإسلام ليست موضع اجتهد بل هي شمولية نصية لا يجوز بحال من الأحوال تجاوزها، والذي يريد أن يُخرج بعض مشتملات الإسلام منه تحت ضغط واقع معين يحمله على حذف شيء من الإسلام، فإنه يرتكب بذلك كبيرة في الوقت الذي يظن فيه أنه يحسن عملاً، وسيؤدي فعله هذا إلى تكوين عقول يتناول عليها الأمد وتتصلب على هذا الفهم السقيم.

لقد آن الأوان للمسلمين أن ينظروا إلى نقص الفهم واجتزائه بالدرجة نفسها التي ينظرون فيها إلى نقص الإخلاص.

إن النتيجة الأرضية التي ينتجها نقص الفهم ونقص الإخلاص واحدة وهي الفشل. ولا نتعرض للنتيجة الأخروية؛ لأننا ننظر إلى المسألة نظرة عملية، ولا ينبغي أن نهمل فكرة نجاح العمل في الدنيا لما يترتب عليه من ظهور الحق وزهوق الباطل، وهي نتيجة تتحقق معها جدية الإسلام، وتظهر من خلالها أحقيته لكل ذي عينين.

الركن الثاني:

ولفهم خارطة الفهم لابد من تصور الخارطة الجغرافية المشتملة على جميع الأجزاء، وقد أخذت أجزاؤها الأحجام الطبيعية، لا تختل هذه الأحجام لا تصغيراً ولا تكبيراً، وعندما تختل الأحجام تكون الخارطة خادعة، وكذلك فإن خارطة الفهم تكون خادعة لأصحابها عندما يُكَبَّرُون أو يُصَغَّرُون أجزاء فهمهم.

إن من يضع على عينيه عدسة مكبرة أو ينظر من خلال المجهر لابد أن

يضع في اعتباره أن ما يراه من الأحجام والمسافات ليس حقيقياً، فإذا تصور هذا الأشياء حقيقة فسيصرف تصرفاً خاطئاً؛ لأنه سيظن أن الجسم الذي رآه عن طريق المنظار على مسافة أمتار منه وهو في الواقع بعيد، وسيتصور أن الذرة الصغيرة جسم كبير يحتاج إلى قوة كبيرة، وهي في الحقيقة لا تقع تحت اللمس أو تحت الحركة.

وقد أصيب بعض المسلمين بهذا النوع من التضخم في فهمهم لأمر الإسلام وقضاياها. فالكلام في موضوع الخلافة والعمل من أجلها ضروري للفهم الصحيح، ولكن أن يستغرق الكلام عن الخلافة مساحة الإسلام إلى درجة تصغر معها الأجزاء الأخرى حتى تكاد تخرج عن الاهتمام هو أمر يقضي على الخلافة نفسها.

والنظر إلى تربية الروح وتزكيتها نظرة استغراق تخضع جميع أنواع النشاط لسيطرتها وهيمنتها بحيث تصغر أمور الإسلام الأخرى هو أمر يقضي على الروح نفسها؛ لأنه لا يقول عاقل بأن التضخم حالة صحية، بل هو حالة مرضية، وكذلك تضخم الفهم.

لقد أصيب بعض العاملين للإسلام بمثل هذا التضخم إلى درجة أنهم ثبتوا اهتمامهم في زاوية من الزوايا، ولم يخطر على بالهم سوى هذه الزاوية، فأصبحت حالتهم حال المريض الذي أصيب بهذيان فلا تسمع منه سوى كلمة واحدة يرددها، وكلما حاولت أن تعيده إلى التوازن ضجر بمحاولتك ليعود إلى هذيانه.

إن تصور الأحجام المناسبة لعناصر الفهم شرط أساس للعمل، فإذا اختلت الأحجام فإنه لا بد أن يعود خللها على الخطة والفهم، وبالتالي على النتائج والثمرات. وإن الانحرافات الكبيرة في تاريخ البشرية كانت ترجع في

كثير من الأحيان إلى الخلل في مساحات الفهم وأحجامه، فاليهود الذين لا يعرفون من دينهم إلا أنهم شعب الله المختار جعلهم فهمهم هذا يتجاوزون حدودهم إلى درجة يتصورون معها تفوق عرقهم على كل عرق، وطالبوا بإخضاع كل شيء لطموحات هذا العرق ورغباته، حتى الله تعالى، فقد صورت لهم أنفسهم تفوقهم عليه.

وكذلك النصارى الذين رثوا لحال عيسى عليه السلام فلم يجدوا تعبيرًا يناسب هذا الرثاء إلا نعته بنعوت التأليه والتعظيم ليصبح فيما بعد إلهاً على حد زعمهم، لقد اختلطت العظمة بالألوهية ولم يعد من السهل تمييزها فأنحرفوا وضلوا.

وكذلك أمر مشركي العرب الذين كانوا يعظمون بعض رجالهم، ثم انتقل التعظيم إلى الآثار التي عاش الرجال على مقربة منها، ثم نسوا أولئك الرجال لتحل الأصنام محلهم وتستولي على عقولهم وقلوبهم، وهكذا فلو أننا سرنا مع شعوب الأرض لوجدنا أن هذه الشعوب قد أصيبت في فهمها أكثر مما أصيبت في إخلاصها للمعتقدات.

وليس أمر كثير من المسلمين بعيداً عن هذا، ومع أن المسلم يبقى في دائرة الإسلام في كثير من الأحيان مع تضخم فهمه، لكنه لن يصل إلى النتائج التي يطمح للوصول إليها إذا فقد هذا التوازن.

إن الفرق الإسلامية هي تعبير عن تضخم الفهم وخلله، فالقدرية الذين أنكروا القدر قوم متصفون بالصلاح والتقوى، ولكنهم وقعوا في أزمة فهم جعلتهم ينفون القدر ويتصورون أن علم الله تعالى ليس أزلياً بل هو علم حادث يكون بعد حدوث الأشياء. لقد أرادوا تنزيه الله تعالى عن الظلم،

وتضخم هذا الجانب في نفوسهم وبالغوا فيه حتى أوقعهم بوصف الله تعالى بالجهل، فخرجوا عن قاعدة التنزيه وهم يريدون التنزيه، ونجد هذا في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم^(١). عن ابن عمر عندما جاء يحيى بن يعمر وحמיד بن عبد الرحمن الحميري فقالا له: إن قبلنا أناسًا يقرؤون القرآن ويتقفرون^(٢) العلم وذكروا من شأنهم، أي من زهدهم وعبادتهم، وأنهم يقولون: لا قدر، وأن الأمر أُنْف «أي مستأنف» لا يعلمه الله ابتداءً، فقال ابن عمر: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم براء مني، فوالذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما تقبل منه إلا أن يؤمن بالقدر، ثم ساق الحديث الذي يتناول قصة مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ وفيه بيان أركان الإيمان.

وقد وصل الأمر ببعض دعاة التنزيه إلى درجة نفوا معها الصفات بحجة توحيد الله تعالى، مخلصين فيما ذهبوا إليه في التعطيل، والمشبهة والمعطلة سواء في النتيجة، ولا ينبغي أن توصف فئة منهم بالعنصرية والتميز، كما حاول المستشرقون وتلامذتهم أن يصفوا المعتزلة بأصحاب الفكر الحر والعقل النير، وهم في الحقيقة أناس جنحوا في فهمهم.

وكذلك الأمر بالنسبة للشيعة الذين أحبوا عليًا رضي الله عنه وآله، ورثوا لما أصابهم، فأخرجهم هذا الرثاء عن جادة الفهم حيث تضخم جانب الحب والموالاته، وسيطر على فهمهم ووجه حركتهم عبر التاريخ توجيهًا خاطئًا،

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان ١/٣٧، ح ١.

(٢) يطلبونه ويجمعونه.

وكان ينبغي أن يعلموا أنه لا يلزم من حب إنسان أن نخرجه عن الأطوار البشرية، ونرتب جميع الأوراق التاريخية السابقة واللاحقة تبعاً لهذا الجانب.

وأما الخوارج فهم فئة تميزت بجهادها وثباتها وصلابتها وإقبالها على العبادة وقراءة القرآن، وهم كما وُصفوا «أنضاء عبادة واطلاح سهر»^(١) ولكنهم أصيبوا بتضخم الفهم عندما عجزوا عن تصور الجمع بين كون المسلم عاصياً وكونه مؤمناً في وقت واحد، فحملهم طلب وضوح الموقف وتحديده من المعصية على تكفير المسلمين، فوقعوا في معصية أكبر، لقد غاب عنهم أن النصوص الشرعية لها أصول تفهم من خلالها، وأن التعارض فيما بينها هو تعارض ظاهري يزول بالعلم والرؤية الواسعة.

وعند فقدان الأصول والعلم يصبح التعارض شبحاً ثقيلاً على العقل، فيحمل المسلم على اختيار نص وطرح نص آخر، وهو في الوقت الذي يريد تحكيم شريعة الله من خلال شعار «إن الحكم إلا لله» يكون قد رفض شريعة الله برفضه نصاً من النصوص أو حكماً من الأحكام، ولبيان هذا الأمر لما له من الأهمية نمثل بنصين يبدو فيهما التعارض.

النص الأول: أخرج الإمام البخاري ومسلم حديثاً جاء فيه «من قتل نفسه بحديدة فهو في نار جهنم يتوجأ بحديدته خالداً مخلداً فيها، ومن تجرع سماً فهو في نار جهنم يتجرعه خالداً مخلداً فيها»^(٢).

(١) أنضاء: هزل الأجساد من طول العبادة. أطلاق: من طلع، بمعنى أعياه.

(٢) صحيح البخاري ٠ فتح الباري)، ط السلفية ١٠/٢٤٧، ح ٥٧٧٨. صحيح مسلم، كتاب

وظاهر هذا النص يفيد أن من قتل نفسه فهو خالد في النار، والخلود في النار جزاء الكفار، وعليه فقتل النفس كبيرة يخلد صاحبها في النار.

النص الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه من طريق جابر أن الطفيل بن عمرو الدوسي أتى النبي ﷺ فقال: هل لك في حصن حصين ومنعة، قال حصن كان لدوس في الجاهلية، فأبى ذلك النبي ﷺ للذي ذخر الله للأَنْصار فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هاجر إليها الطفيل بن عمرو وهاجر معه رجل من قومه فاجتوا^(١) المدينة، فمرض فجزع فأخذ مشاقص^(٢) له فقطع بها براحمه^(٣) فشخت يده حتى مات، فرآه الطفيل في منامه، وهيئته حسنة، ورآه مغطياً يديه، فقال له ما صنع بك ربك؟ فقال: غفر لي بهجرتي إلى نبيه ﷺ فقال: مالي أراك مغطياً يديك، قال: قيل لي: لن نصلح منك ما أفسدت، فقصها الطفيل على رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «اللهم وليديه فاغفر»^(٤).

وهذا النص يفيد أن قاتل نفسه ليس مخلداً في النار بل هو في الجنة كما أخبر النبي ﷺ بإقراره رؤيا الطفيل، ودعائه لقاتل نفسه بالمغفرة.

ويبدو التعارض الظاهري بين هذين النصين، ولكن علماء العقيدة أزالوا

الإيمان ١/ ١٠٣، ح ١٧٥.

(١) فاجتوا المدينة، قال الخطابي: أصله من الجوى، داء يصيب الجوف (أصابهم فيها سقم).

(٢) مشاقص: جمع مشقص، سهم فيه نصل رفيع.

(٣) براحمه) البراجم مفاصل الأصابع واحدها برجمة (فشخت يده) أي سال دمها

(٤) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، ١/ ١٠٩، ح ١٨٤.

هذا التعارض من خلال فهمهم المتزن، فحملوا النص الأول على أن من قتل نفسه وهو مستحل لهذا الفعل أي معتقداً حله، ومن اعتقد حل شيء حرمه الله فهو كافر خالد مخلد في النار.

وأما النص الثاني: فقد كان الفعل ناتجاً عن ضجر وسأم، لا عن استحلال ما حرم الله، فلم يكن قاتل نفسه كافراً ولا خالداً مخلداً في النار، بل هو مقترف لمعصية مع بقاء أصل الإيمان في نفسه، ويبقى في دائرة وزن الأعمال وعرضها على الله، لا في دائرة حبوط الأعمال وركمها في جهنم، وإذا دخل المؤمن النار عقوبة على معصية فعلها فسيخرج منها بعد أن ينال جزاءه إذ لا خلود لأهل الإيمان في النار.

وأما في العصر الحديث فقد أصيب بعض الدعاة بمثل هذه الأزمة في الفهم فنظروا إلى العصاة والجلادين نظرة جعلتهم يحكمون عليهم بالكفر والخلود في النار، ظناً أنهم لا يستطيعون تعبئة الرأي العام ضدهم، ولا يمكنهم إقناع الناس بفساد هؤلاء إلا إذا استندوا إلى نصوص تحكم عليهم بالكفر والخلود في النار.

وهذه الفئة يمكن أن يُقال فيها إن فكرها قد انحرف في ظل الفتنة، وكان ينبغي أن يحافظ الفكر على طبيعته ومنهجه حتى في ظل الفتنة، بل نحن أحوج إلى الفكر المتزن في الفتنة أكثر منه خارجها.

فالفكر لا يتعرض للانحراف في الأحوال العادية، وإنما يتعرض للانحراف في المنعطفات الحادة، فإذا وقعت الأجساد اسيرة لآلام الشياطين فلا ينبغي للأفكار أن تلتوي كما تلتوي الأجساد.

إن قساوة قلب السجّان، وانحراف فطرة الجلاّد هما مظهران من مظاهر السوء ودليّان على فساد القلوب، ولكننا نضعهما في مكانهما في مقاييس الشر، ولا بد أن يُقتص من كل ظالم، ولكن لا ينبغي أن يصل الأمر إلى درجة التكفير ؛ لأن التكفير لا يكون إلّا إذا أنكر المسلم معلوماً من الدين بالضرورة، بالإقرار على نفسه بالكفر أو إنكار آية من كتاب الله، أو باستحلال ما حرم الله أو بتحريم ما أحل الله.

إن الفهم المتزن يجعلنا نستطيع أن ندرك هذه المعادلة، ويمكن عندئذ أن يحكم الرجل على جلّاده بالمعصية لا بالكفر، في حين يحكم بالكفر على رجل رثى لحاله ومسح على جراحه ووفاه بطعامه وشرابه، ولكنه همس همسة واحدة قال فيها إن الشيء الفلاني الذي حرمه الله كان أولى أن يكون حلالاً، أو إن الشيء الفلاني الذي أحله الله كان الأولى أن يكون حراماً. ونحن حين نرى شارب الخمر لا يجوز أن نحكم عليه بالكفر، وقد نرى آخر لا يشربها ويعافها ولكننا نحكم عليه بالكفر عندما يقول: ما ينبغي أن تكون الخمر حراماً.

الركن الثالث:

أن تأخذ عناصر الفهم أماكنها الطبيعية فلا تتبدل مواقعها، بل يظهر كل عنصر في مكانه الطبيعي ضمن سلسلة الأولويات؛ وذلك لأن طريقة ترتيب الأولويات تسهم في تغيير المنهج وطريقة التفكير، فيكون الاختلاف بين جماعتين ليس في وجود عناصر الفهم، ولكن في ترتيب هذه العناصر، كما أن البدء في المرحلة قبل أوانها يقضي على المرحلة نفسها، ولقد رأينا صنع أعداء الإسلام وهم يحاولون في كثير من الأحيان أن يجروا العمل الإسلامي

إلى مرحلة لم يُعد العدة لها، ولم يستوعب شروطها ومقوماتها، وكان هذا يؤدي باستمرار إلى إجهاض العمل الإسلامي باستخدام هذه الأمصال القاتلة.

فممارسة القتال هو ذروة سنام الإسلام، ومكون من مكونات الإسلام يهدف إلى مقارعة الفتنة والقضاء عليها، وتمهيد الطريق لانتشار الدعوة ووصولها إلى كل مكان وإزاحة العقبات من طريقها، ولا بد أن تحتوي عليه خارطة الفهم، ومن يطالب بإلغاء الجهاد من الفهم فإنه يكفر ويخرج من الملة.

فقد كفرت القاديانية عندما عطلت هذه الشعيرة على المستوى النظري، وحذفتها نهائياً من خارطة فهمها، وصور لها دجالها أن الإسلام يمكن أن يتم ويكمل بغير جهاد. ومع أن للجهاد هذه الأهمية وهو فريضة من فرائض الدين إلا أن له شروطاً ومقدمات لا بد من اكتمالها، وحتى نصل إلى مكان القتال وفق ترتيبه في سلم الأولويات، وقدوتنا في هذا سيد المجاهدين النبي محمد ﷺ، الذي لم يأذن لأصحابه بالقتال إلا بعد هجرتهم للمدينة، علماً بأن الأسباب الداعية للقتال كانت موجودة قبل ذلك، ولكن الشروط الضرورية للقتال لم تكن موجودة.

ونحن في هذه الأيام نواجه أزمة فكرية عند بعض العاملين للإسلام الذين يظنون أن توافر الأسباب وغزارتها يغني عن توافر الشروط، فهم يريدون القتال على أي حال، وهذه معادلة ذات شق واحد، تؤدي إلى نتيجة عكسية، وقد آن الأوان الذي تُعتمد فيه القيادة الراشدة، صاحبة المنهج والفهم، كما آن الأوان للمتعجلين أن يدركوا ضرورة هذا الرشد، ومعنى بعد النظر،

واتباع قاعدة الأولويات، حتى لا يقع العمل الإسلامي في المصيدة التي ينصبها له أعداؤه، وقد تبين بما لا يدع مجالاً للشك أن مثل هذه الممارسات كانت عاملاً في تجريد المجتمع من القوة الإسلامية.

مراجعة الفهم:

وللمحافظة على هذا الفهم في حدود أركانه لا بد من استحضار العناصر والأولويات، وأن لا تغيب هذه الأمور عن العاملين للإسلام. كما ينبغي أن لا يصرفنا الانهماك في مرحلة من المراحل عن استحضار التصور الذهني والنظري لجميع المراحل، وهذا شرط لاستقرار المنهج وسلامة التفكير، وإن أسباب التسرب في العمل الإسلامي ترجع في كثير من الأحيان إلى عدم استحضار هذه الأمور أو إلى نشاط مبالغ فيه ضمن جزئية من هذه الجزئيات، ومن أجل ذلك نجد بعض الدعاة ليسوا قادرين على مواكبة الدعوة، وقد يسировون فيها بأجسادهم أكثر مما يسировون معها بلائحة فهمهم المتكاملة، ومثل هؤلاء لديهم قابلية التسرب، وعلاج هذه القابلية يكون بمراجعة الفهم والوصول إلى قناعات حول أركانه.

والمتتبع لسنة النبي ﷺ يجد أنه كان باستمرار يعيد على الصحابة عناصر فهمهم للإسلام، فلو نظرنا في حديث جبريل عليه السلام الذي كان في آخر عهد النبوة، حيث ذكرت فيه حقائق إسلامية لم تكن معروفة عند الصحابة، بل كانت معلومة، وقد يقول قائل ما الداعي إلى إعادتها وترتيبها؟ علماً بأن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا قد سمعوا كثيراً عن الصلاة والزكاة والصيام والحج والإيمان والإحسان والساعة، ولكن منهج هذا الدين يقوم على طريقه تربوية تعتمد على إدخال المعلومة الجديدة في ظل معلومات

سابقة مرتبة، لتكون العملية الذهنية متكاملة، وإن أفضل طريقة لمراجعة الفهم هي معرفة أهداف الإسلام الكبرى ومقاصده العظمى، واستحضار هذه الأهداف والمقاصد في حالة وعي لا تعرف الهذيان ولا التجزئة، والمنهج السديد تتركز فيه أهداف الإسلام ومقاصده وهي أركان الفهم. ولا بد من معرفة هذه الأهداف وشرحها للعاملين ومعاودة الشرح والدراسة لتبقي حية في النفوس، صيانة لها من الغفلة والنسيان، وهما أخوا الجهل والضلال.

إن استعراض الأهداف يعطي الداعية قناعة بأن دعوته كلية لا جزئية، وأنها متنوعة المراحل، ويوقفه على اتساع حقول الدعوة، ويكشف له عن عظيم الجهد المطلوب لتحقيق هذه الأهداف، ويساعده على قياس الجهد المبذول.

إن الإدراك الواعي لفرق الجهد بين المطلوب والمبذول يدفع الداعية إلى مراقبي الجهد المطلوب، ويشعره بالتقصير وبأسباب عدم بلوغ الغاية، وهذا جزء مهم من علاج حالة الإحباط في نفوس الدعاة. فكثير من الدعاة تصيبهم الحيرة لعدم وصولهم إلى أهدافهم، ظانين أنهم وفّوا ما عليهم وأبرءوا ذمتهم. وهذا يجعلهم يتهمون دعوتهم بالقصور، أو يُصابون بالإحباط، والالتهام بالقصور والإحباط سببان رئيسان يخرجان الداعية عن مساره.

وزيادة في إيضاح هذه الفكرة نقول: إن الجهد المطلوب جهد موضوعي، مثاله أن نقل مائة كيلو غرام يحتاج إلى قوة حمل تساوي مائة كيلو غرام، ١٠٠ كغم وزن = ١٠٠ كغم قوة. إن ٩٠ كغم قوة لا يمكن أن ترفع وزن ١٠٠ كغم.

إن الجهد المطلوب يبينه قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ويبينه حديث النبي ﷺ: «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياة شعبة من الإيمان» متفق عليه^(١).

وأما الجهد المبذول فيدل عليه قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَزُكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ الآية [النجم: ٣٢]، وقوله: ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ الآية [الشورى: ٣٠]. والدعوة الناجحة هي التي تضيق الفجوة بين الجهد المبذول والجهد المطلوب.

(١) صحيح البخاري (فتح الباري) ص ١/ ٥١ ح ٩. وصحيح مسلم ١/ ٦٣، ح ٥٧، ٥٨.

القاعدة الثامنة عشرة

الفهم السائد والفهم الواجب

لقد وقع كثير من المسلمين في مشكلة مع فهم القرآن الكريم، وهذه الأزمة أشد عليهم وأفتك بهم من عدوهم. فلقد أنتج الفهم الخطأ فرقاً وطوائف، مزقت الأمة وأتت على كلمتها ووحدتها. ونحن في هذه القواعد نقف على الفهم السائد في مقابل الفهم الواجب.

فقد ساد في الأمة فهم أناني فردي يتستر بستار النفعية وهو الضرر بعينه على الفرد والجماعة، حيث نجد أكثر الناس يدورون حول ذواتهم وتهيمن عليهم السلبية عندما تستدعيهم المصلحة العامة. ونجد فيهم الانكباب على الذات أو الدائرة الصغرى، ولسان حال أحدهم الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ويفهمون من الآية أن يعتني الإنسان بشئونه الخاصة، ويقطع صلته مع الناس، مع تكرار كلمات وشعارات مثل: نحن في آخر الزمان، وما شابه ذلك من عبارات اليأس والقنوط. وهذا الفهم مخالف لأهداف القرآن ومقاصده، فقد جاء القرآن الكريم رحمة للعالمين وجاء لإصلاح الفرد والجماعة، وطالب المسلم بأن ينفر للدعوة والجهاد، وأن لا يكون مع الخوالف، وأن لا يقعد مع القاعدين. والقرآن لا تتضارب آياته ولا تتناقض مقاصده، وليست العوائق والعقبات أسباباً كافية لصرف هذه المقاصد عن بلوغ غايتها، ولولا

ذلك لما شُرع الجهاد بجميع صورته وأشكاله، وقد ندب الله المؤمنين لمكافحة الفتن أنى كانت.

ولقد التفت أبو بكر إلى خطورة هذا الفهم السلبي العكسي، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده والترمذي في الجامع من طريق التابعي الجليل قيس ابن أبي حازم قال: قام أبو بكر رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه»^(١)، ولو فهم أبو بكر هذه الآية فهمًا سليبًا لما أصر على مقاتلة مانعي الزكاة، ولترك المرتدين يعودون بالعرب إلى جاهليتهم الجهلاء.

وقد أخرج الإمام أبو عيسى الترمذي صاحب الجامع، بسنده عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية؟ قال: آية آية؟ قلت: قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، قال: أما والله لقد سألت عنها خيرًا، سألت رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًا مُطاعًا وهوىً متبعًا ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام، فإن من ورائكم أيامًا الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلًا يعملون كعملكم»^(٢).

وبهذا يكون أبو ثعلبة قد فسر الآية، وحملها على الوقت الذي تكون فيه

(١) مسند أحمد (٢/١) والترمذي (٥/٢٥٧) ولفظه «إن الناس إذا اردوا ظالمًا فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب» وقال: حسن صحيح.

(٢) الترمذي (٥/٢٥٧).

صفات الناس كما ذكر من الشح المطاع. والشح أعم من البخل إذ هو في المال وغيره، فيصبح الشح هو القاعدة العامة المتبعة، والهوى متبعاً وهو رغبة النفس، ويُعجب كل صاحب رأي برأيه فلا شورى ولا اتفاق. وقد يقول قائل: إن هذه الصفات تنطبق على مجتمعاتنا، ألا ترى الشح المطاع والهوى المتبع إلى آخر هذه الصفات؟ وبذلك تكون الآية منطبقة على زماننا، ونحن المخاطبون بها! والحق أن هذه الصفات المذكورة هي الصفات التي تصبح سائدة عامة فلا يخرج أحد في المجتمع عنها، وما زال في المجتمع خير كثير، هنالك الصالحون الأتقياء والكرام الأسخياء، وطلاب الآخرة الأولياء، والباحثون عن الدليل من الكتاب والسنة، وليس المراد أن يكون بعض الناس على هذه الصفات السيئة، فوجود الشحيح أمر متحقق في كل عصر وفي كل مكان، ووجود المعجب برأيه المعتد بخطئه والمعتز بخطيئته ممكن في كل دهر. وقد يدعي مدع أن هذا موجود حتى في عصر الصحابة الكرام وفي عصر التابعين الأبرار، وهو ما أشكل على بعض الصحابة حتى قام أبو بكر ينفي هذا الإشكال، وما اختلط على أبي أمية الشعباني فقام يسأل أبا ثعلبة الخشني رضي الله عنه، فصرف أبو ثعلبة زمن تحققها عن زمان الصحابة الكرام، وقيد وجودها بالصفات المذكورة على وجه الأحكام.

ونحن نقول: إن الزمان الذي تصل فيه الأمور إلى هذا الحد من الشح والهوى والدنيا المؤثرة لم يأت بعد، ويكون ذلك قُبيل يوم القيامة؛ لأن القيامة لا تقوم إلا على شرار الخلق وأبغضهم إلى الله تعالى. وإن استغرق هذه الصفات الذميمة لأبناء الجنس البشري يجعل الحياة عديمة الجدوى ولا هدف لها، وعندئذ يكون القدر المقدور في تدمير هذا الكون المعمور.

ونقول أيضًا: إن هذه الصفات تعني فساد الفطرة الإنسانية وتنكبها عن الخير وتمحضها للشر. وقد أخبرنا النبي ﷺ عن زمان لا تُقبل فيه توبة، وأخبرنا القرآن الكريم عن وقت لا ينفع فيه نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا. قال عليه الصلاة والسلام: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تخرج الشمس من مغربها»^(١)، فباب التوبة مفتوح على مصراعيه، والتوبة مبذولة لجميع البشر، ويترتب على ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم اليأس من الناس، والقيام بواجب الإنذار والبلاغ، ولكن عندما تنقطع التوبة ويُغلق بابها بظهور العلامات الكبرى التي لا ينفع الإيمان بعدها فعندئذ لا يفيد الإنذار والبلاغ إلا صاحبهما في حصوله على أجرهما وثوابهما. وهذا ما جعل ابن مسعود يرى أن بعض آيات القرآن الكريم جاء تفسيرها، وبعضها لم يأت تفسيرها.

ثم إن مما تفيد الآية تحصين النفس ووقايتها من عوامل الشر، بأن يقوم المسلم بعملين متلازمين: الأول: إصلاح الذات، والثاني: الإصلاح خارجها. والخطر على الذات يكون من داخلها، ويكون من خارجها، فإذا تركت الذات دون تحصين وحفظ تسربت إليها العوادي الخارجية فأفسدتها. والآية تأمر المؤمنين بأن يحافظوا على أنفسهم من هذه العوادي كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦].

وقد جاء في تفسير الآية أن معنى أنفسكم: قومكم وأمتكم، كما في قوله

(١) سنن أبي داود (٧/٣).

تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، وكما في قوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] ويكون المعنى احرصوا على أمتكم وعلى أهل دينكم.

ونخلص من كل هذا إلى أن الآية فيها دافعية عظيمة للعمل والحرص على مصلحة الأمة، وليست سلبية عدمية تدعو إلى الإنكباب على الذات فقط، أو على المصلحة الخاصة فحسب.

القاعدة التاسعة عشرة

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض من فروض الأئمة

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أبرز خصائص الأمة المسلمة، وعلامة خيريتها، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. ولتحقيق هذه المزية والصفة الشريفة جاء الأمر القرآني بذلك: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دليل على حياة الإيمان في القلب، وبرهان على قيام الرابطة الحقيقية بين هذا المسلم الأمر الناهي وبين دينه، وأنه ينطلق بهذا الدين بجد وعزيمة.

المعروف والمنكر في اللغة والاصطلاح:

المعروف في اللغة ما عرفه الناس واعتادوه، والمنكر ما أنكروه ومقتوه. وأما في الشرع فالمعروف ما عرفه الناس واعتادوه مما جاء به الشرع، والمنكر ما أنكروه ومقتوه مما نهى عنه الشرع. فقد يكون المعروف عند الناس منكراً في الشرع، وقد يكون المنكر عند الناس معروفاً في الشرع. ففي غياب شرع الله تعالى عن المجتمعات تنشأ أعراف جاهلية تبدل الموازين والأذواق والأخلاق، وها نحن نجد الكثير من مجتمعاتنا الإسلامية تجعل من المنكرات معروفاً يحظى بالدعم المادي والمعنوي، وتحميه الأنظمة

والقوانين، وهذا من الثمار الخبيثة التي أنتجتها سلبية الآباء والأجداد، وموادعتهم للمنكر وأهله، وفسح المجال لدعاة السوء في مختلف المجالات.

مسئولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عامة:

وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شأنًا خاصًا لمسلم دون آخر بل هو مسؤولية عامة مصدرها التكليف الشرعي العام: «من رأى منكم منكراً فليغيره»، وكلمة «من» من ألفاظ العموم، فكل مسلم آمن بالله رباً وبالإسلام ديناً مكلف شرعاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولا يستحق ولاية الله ورسوله والذين آمنوا إلا إذا قام بهذا الواجب ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

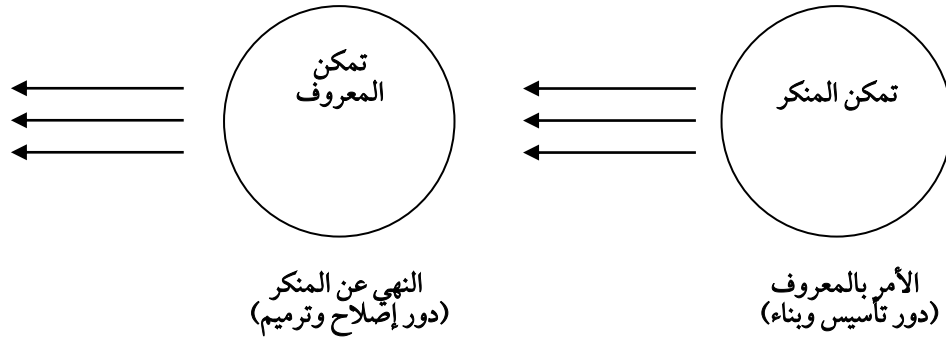
والقيام بهذا الواجب فريضة شرعية، بل هو أصل الفرائض الشرعية، وهو مطلوب في كل حال، وفي كل وقت، سواء أكان المسلم غنياً أو فقيراً، قوياً أو ضعيفاً، فرداً أو جماعة، كثير العلم أو قليله. والذي يتنوع ويختلف إنما هو المنازل والدرجات، فهذه تختلف حسب الأحوال والأوضاع، فأعلى درجات إنكار المنكر التغيير باليد، وأدناه التغيير بالقلب.

بأيهما نبدأ:

اقترن ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أكثر الآيات والأحاديث التي تحض على القيام بهذه الفريضة، وجاء ذكر النهي عن المنكر وحده في مواضع أخرى، وذلك مثل قوله تعالى عن بني إسرائيل: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩].

وجاء إفراد النهي عن المنكر في الحديث: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(١).

وهذا التنويع في ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدل على أن كلا منهما قد يطلب في ظروف أو أحوال معينة، وأنهما قد يجتمعان أو ينفردان. والذي يقرر دور كل واحد منهما تمكن أحدهما في المجتمع، فإذا تمكن المنكر كما كان الحال في مكة قبل الهجرة، أو كما هو في بعض المجتمعات الإسلامية المعاصرة فإن الأمر بالمعروف يبرز ويأخذ دوره في عملية التغيير، فإذا تمكن المعروف وهيمن على المجتمع فإن النهي عن المنكر يبرز ويأخذ دوره لمعالجة الظواهر الشاذة، كما كان الحال بعد الهجرة إلى المدينة، وقيام المجتمع المسلم فيها، وكما هو الحال في مؤسسة إسلامية، أو جماعة من الناس رضيت بحكم الإسلام فيها.



طبيعة الأمر بالمعروف:

(١) أخرجه مسلم (٦٩/١)، والترمذي (٤٦٩/٤)، طبعة مصطفى البابي الحلبي، وأبو داود (٦٧٧/١)، طبعة دار الحديث بحمص بتحقيق الدعاس، وابن ماجه (٤٠٦/١)، طبعة عيسى الحلبي بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

تتصف طبيعة الأمر بالمعروف بالحكمة والمودة والرحمة والبر، والنظر إلى الجانب الإيجابي في الشخصية وتنمية هذا الجانب، ويبرز دور القدوة الصالحة، إذ لا يكون الأمر بالمعروف إلا من أهل المعروف الذين يظهر عليهم معروفهم فتكون الدعوة إليه بلسان الحال قبل لسان المقال.

طبيعة النهي عن المنكر:

تتصف طبيعة النهي عن المنكر بالمقاومة والمغالبة وروح التحدي والإثارة، فهو يتضمن تسفيه الأحلام وتخطئة الأقوال والتصرفات، ومقاومة العادات والرغبات.

ومن هنا كان النهي عن المنكر أخطر وأشق من الأمر بالمعروف.

عملية التغيير من خلال الأمر بالمعروف: يبدأ الأمر بالمعروف بكلمة ودود، ليس فيها إثارة أو مغاضبة، وليس فيها مقاومة أو معاندة، وتكون الكلمة منطقية ذات حجة قوية، وبذلك تبدأ عملية التغيير في المجتمع من خلال مراحل عدة:

المرحلة الأولى:

عندما يُلقى قول المعروف أو فعله في مجتمع المنكر يلقى هذا القول أو الفعل الاستهجان والسخرية، وهذه هي المرحلة الأولى؛ لأن عيون أهل المنكر وأذانهم وأذواقهم لم تتعود على مثل هذا القول أو الفعل فيقابل بالسخرية والاستهزاء والاستهجان، كما هو الشأن في كل جديد. فلقد أثارت صلاة النبي ﷺ استهجان أهل مكة وسخريتهم في أول الأمر.

المرحلة الثانية:

فإذا واصل أهل المعروف معروفهم فإن مرحلة جديدة تبدأ وهي مرحلة عدم الرضا والمقت مع الحوار والجدل ثم المقاومة واستخدام العنف. وهنا تبدأ مرحلة الدفاع عن المعروف، والمحافظة عليه، وإدامة زراعته، وحياطة بذرته بالرعاية اللازمة. ومن لوازم هذه المرحلة الصبر والمصابرة والاحتساب والتضحية. لكن المعروف يصبح فكرة معروضة في سوق الأفكار والعادات.

المرحلة الثالثة:

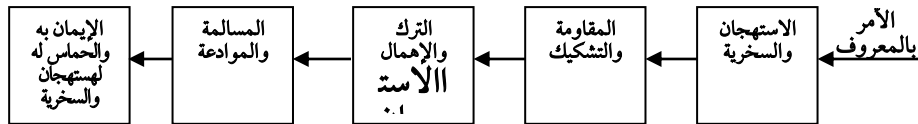
فإذا واصل أهل المعروف مهمتهم في تأسيسه وتأكيد، وتثبيت شعاراته، وإبراز محاسنه، وصبروا على ذلك، واحتملوا الأذى في سبيله، وأحسنوا العرض والتأييد، انتقل أمر المعروف إلى عدم القبول أو الترك. بمعنى أنه يصبح حالة مستعصية في مجتمع المنكر.

المرحلة الرابعة:

ومن خلال المواصلة في قول المعروف وفعله ينتقل الأمر إلى المسالمة والموادعة، حيث يصبح المعروف أصيلاً في المجتمع ثابتاً فيه، شريكاً أصيلاً في مجتمع المنكر.

المرحلة الخامسة:

ثم تأتي مرحلة الإيمان به والحماس له ثم النصر والتأييد.



إن هذه الخطوات هي الخطوات المنطقية لعملية إرساء المعروف في النفس والمجتمع، وإن الانتقال من خطوة إلى التي تليها هو عمل إيجابي، كما أن

التحول المطلوب لا يتحقق بسرعة، ولا يتحقق من خلال مرحلة واحدة، ولا يقاس النجاح والفشل بحدوث الانقلاب المفاجئ أو عدم حدوثه، لذا فإن فتح مكة ودخول أهلها في دين الله أفواجاً لم يأت فجأة، بل من خلال عمل متواصل بدأ من أول أيام البعثة المباركة.

وبعكس هذه الخطوات تسير عملية المنكر في المجتمع؛ إذ أن أهل المنكر يرضون باليسير من التغيير المرحلي، حتى يصلوا بمنكرهم إلى مرحلة الهيمنة والتحكم.

عملية إنكار المنكر:

عندما يكون المنكر مهيمناً على مجتمع ما فلا بد من أخذ الأمور التالية بالاعتبار:

رسوخ المنكر في النفس والمجتمع، وقيام مؤسسات قوية لحمايته والدفاع عنه.

فساد الأذواق والقيم والعادات والأعراف.

يظهر أهل المنكر بمظهر أصحاب الحق المشروع والنظام المؤيد بالقانون، ويظهر الناهي عن المنكر بمظهر الشاذ الخارج عن النظام والقانون.

إن استخدام اليد (القوة) لمواجهة المنكر الاجتماعي المتمكن ضرب من الانتحار، وإهدار للطاقات دون جدوى، وسيستخدم المنكر جميع مراكز القوة فيه لمقاومة الناهي وتشويه صورته، والعمل على استئصاله، وسيعد عمله ثورة غير مشروعة يلقي صاحبها ألوان التنكيل والبطش. ولا تستخدم اليد إلا في إحدى حالتين:

الأولى: من قبل الدولة المسلمة والأمير المسلم.

الثانية: من قبل الفرد المسلم في المجتمع المسلم في بعض الحالات، فله أن يكسر قارورة الخمر وأن يريقه، وله أن يقتل الخنزير، وذلك إذا كان الخمر والخنزير بيد المسلم، وليس له أن يقتل فاعل المنكر بل يحيل أمره إلى الدولة.

كيف ننكر المنكر في مجتمعاتنا:

وإذا لم ننكر المنكر باليد فليس معنى ذلك تعطيل هذه الفريضة، بل نقوم بها باللسان، وإذا لم يمكن ذلك فإننا نقوم بها بالقلب، وذلك أضعف الإيمان.

أما إنكار المنكر باللسان فله ضوابط، منها:-

أولاً - أن ندرج في هذا الإنكار فنستخدم من الألفاظ والعبارات ما نظن أنه يحقق النتيجة، فنبدأ بالكلمة الرقيقة الودود، واستعمال صيغ العموم دون ذكر اسم صاحب المنكر اتباعاً للسنّة وأنفع للعلاج، وما يُدفع بالأدنى لا يُلجأ فيه إلى الأعلى والأشد، وقد يكون الإسرار بالإنكار أولى من الإشهار.

ثانياً: أن يتعد الناهي عن المنكر عن ذكر الأسماء والأشخاص والهيئات؛ لأن التسمية والتخصيص قد يتعرض معهما الناهي للعقوبات والجزاءات التي تفرضها القوانين.

ثالثاً: هنالك منكرات في المجتمع ثبت منكرها عند الناس جميعاً، والنهي عنها مقبول لدى قطاع عريض من الناس، وذلك مثل الزنا والخمر والمخدرات والاختلاط، فمثل هذه المنكرات لو رفعنا صوتنا بإنكارها فسنجد معناً كثيراً من الناس الذين يمتثلونها ويتمنون إزالتها.

رابعًا: وإن جمع الإحصائيات والبيانات والأخبار والتقارير حول بعض المنكرات تجعل الحجة في المقاومة أقوى وأوسع.

خامسًا: إن التحري الدقيق لصدق المعلومات أساس في إصابة الهدف، والمبالغة والكذب يحرمان الداعية من صلابة الموقف وصدق الدعوة.

تغيير المنكر بالقلب: وقد ذكر النبي ﷺ التغيير بالقلب فجعله رتبة معتبرة، ومن لم ينكر المنكر بقلبه فليس في قلبه شيء من الإيمان؛ إذ أن إنكار المنكر بالقلب هو القاعدة الأساس.

وهذه القاعدة مشتركة بين جميع المراتب، فمن أنكر بيده فلا بد أن يكون منكراً بقلبه، ومن أنكر بلسانه فلا بد أن يكون منكراً بقلبه أيضاً، والإنكار بالقلب معناه مقت المنكر وكرهه والاشمئزاز منه، ومن كره شيئاً وعاداه بقلبه فلا بد أن تتحول هذه الكراهية إلى عمل إيجابي يظهر في كلماته وحركاته وسكناته، فالعاطفة المتأججة هي مصدر الحركة والفعل، وهذه الرتبة رتبة عامة يقدر عليها كل مسلم في كل زمان ومكان، وشرطها عدم الرضا والشعور بالسخط على المنكر وأهل المنكر، وأدنى درجات هذه الرتبة اعتزال المنكر والابتعاد عنه.

تركيز الجهود:

وإن أجدى الأعمال والأقوال وأولاهها ما توجه إلى إرساء المعروف الأكبر، وهو تحكيم شرع الله تعالى ورفع لواء دينه، وينبغي أن يكون هذا التوجه شغل المسلم شاغل في ليله ونهاره، فإذا تركزت الجهود نحو هذا الهدف أوشكت أن تثمر فيجد المسلم عندئذ أكبر العون في إنكار المنكر والأمر بالمعروف.

القاعدة العشرون

أشد من هجران القرآن مخالفة مقصوده ومناقضة أهدافه

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم كتاب هداية يحيى به موات النفوس، وينظم الحياة، ويأخذ بأيدي البشر إلى أقوم السبل، ويحقق السعادتين الدنيوية والأخروية، ولقد حقق القرآن الكريم هذا الدور في حياة الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، وأحدث أعظم حركة تغييرية شهدتها التاريخ، وقد نتساءل لماذا لا يحقق القرآن الكريم هذا الدور في حياة البشرية اليوم؟ أليس القرآن هو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ؟ أليس هو هو بسوره وآياته وحروفه؟ بلى، إنه الكتاب الذي حفظه الله تعالى من التبديل والتغيير، وهو أصدق وثيقة عرفها تاريخ الإنسان، والحق أن فهم القرآن الكريم هو الذي تعرض للخلل، فلم يعد أكثر المسلمين يفهمون القرآن كما أنزل، ولم يعودوا يتعاملون مع الآية من خلال رصيدها الحقيقي من المعاني، وأصبح المسلم يستعمل الآية في غير ما أنزلت له، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وهذه آية لا تغيب عن المسلم، سواء كان متعلماً أو أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وأغلبهم يستشهد بهذه الآية إما لحسم الخلاف في موضوع ما، أو لمطالبة من يدعو إلى الله بدعوة مقنعة أن يقلع عن دعوته بحجة أن الأذان في صمم، والناس لا يستجيبون إلى الخير، وقد ذهب الزمان الذي كان المرء يجد فيه أعواناً على الهدى والمعروف، وتستخدم أيضاً لإعطاء المعاند والمكابر مبرر الإصرار على

عناده وكبره، فيقول المراقب الخالي الطرف من أعباء الحق: «أترك يا شيخ، ليس عليك هداهم».

وهذا الأسلوب من الاستدلال بالآيات الكريمة يناقض مقاصدها وأهدافها، ويجعلها تعمل في غير ميدانها، وأشد من هجران القرآن مخالفة مقصوده ومناقضة أهدافه، واستخدام آياته لتبرير القعود والكسل وتعطيل العمل.

وإذا تأملنا الآية وما حَقَّقها من القرائن وما سبقها ولحقها من الآيات فستبين لنا الدور العظيم الذي تؤديه في إيقاظ الهمم، وإحياء النشاط، وإثارة الجهد، جهادًا وثباتًا ودعوة إلى الله تعالى.

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

فقد جاءت هذه الآية في سياق سورة القصص، بعد الكلام عن قصة موسى عليه السلام وفرعون، وبيان ما في القصة من أعلى وجوه البلاغ وأقواها في مواجهة أشرس صور العناد والجحود والاستكبار، ورغم سوق الشواهد والدلائل والبراهين، كل ذلك مؤيد بالمعجزة، رغم كل هذا فقد أصم فرعون أذنيه عن سماع الحق، فالهدى مبذول في أقوى صوره وأوضحها، ولكن فرعون وملأه أخذوا على أنفسهم إغلاق جميع المنافذ، وحجبوا بعنادهم قلوبهم عن الهدى. وهذا الأمر يتكرر عبر التاريخ، فهذا محمد ﷺ يمكث ي مكة ثلاث عشرة سنة لا يترك قومه في ليل ولا نهار إلا ويأتيهم بأروع صور البيان وأجلاها، وبأيسر الأساليب وأرفق الوسائل، مع التحبب والتودد فجُمع له ﷺ: البيان المعجز والشرف العظيم والقلب الرحيم والحب الخالص، وبصورة أخرى فقد كانت جميع الدواعي والظروف

مناسبة للإيمان بدعوته، ورغم كل هذا لم يملك هذا النبي الكريم أن يلزم عمه الحبيب وهو النصير الشفيق بالإيمان بدعوته والاهتداء بهديه.

أخرج الشيخان^(١) بسنديهما: «لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ: يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك. فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل الله تعالى في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

إنه لمن أعجب العجب أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة ابن أحد زعماء مكة وصناديدها وأعداء الإسلام فيها يدخل الإيمان قلبه، وأبو طالب عم النبي الحبيب ﷺ ونصيره وباذل المال والنفس في سبيل الدفاع عنه، الذي يقول ابن كثير فيه: كان يحوطه وينصره ويقوم في صفه ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شرعياً، ومع هذا يموت على غير الإيمان!.

أين العقدة إذا؟ وهل شاء الله تعالى لأبي حذيفة الإيمان ولم يشأ لأبي طالب؟ وهل معنى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أن الله تعالى يصرف

(١) أخرج البخاري (متن فتح الباري) ٣/ ٢٢٢. ومسلم ١/ ٥٤.

الإيمان عن أحد من خلقه ويمنحه لآخر؟ وهذا فهم جبري يتعارض مع رحمة الله تعالى لخلقهم ﴿وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ولم تسق الآية لهذا المعنى، وإنما سيقّت لبيان عظمة الله، وتمام قدرته، فهو وحده القادر على حمل الناس جميعاً على دين واحد، أو على مذهب واحد، لو شاء جعلهم مؤمنين، ولو شاء جعلهم كفاراً، ولو شاء لجعلهم أمة واحدة، ولو شاء لأمتهم جميعاً. وهذا كلام عن المشيئة والقدرة، وليس كلاماً عن فعله في خلقه، فنحن عندما نقول على سبيل المثال - والله المثل الأعلى - يستطيع الرئيس أن يعزل جميع الموظفين، ويستطيع أن يبدل وظائفهم، فهل يعني ذلك أن يقوم الرئيس بمثل هذا العمل لمجرد أنه يستطيعه، أو أنه من خصائصه؟ والجواب: إن الكلام عن الخصائص والصفات وهو غير الكلام عن الأعمال والممارسات، ولا يتم الإيمان بالله تعالى إلا إذا اعتقد المؤمن أن الله وحده واهب الحياة وخالق الأحياء وسائر الموجودات، وأنه وحده بيده الهدى.

لقد كان الكلام في معرض حرص النبي ﷺ على عمه، وقد حزن عليه حزناً شديداً وكأنه يقول: كيف مات هذا العم العزيز الحبيب هكذا ولم يؤمن؟ فكان الجواب: إنك يا محمد عبد من عبيد الله، مأمور بالبلاغ والتبيين، ولا سلطان لك على قلوب الخلق، إنك تملك أن تبين حجتك، وتقرأ القرآن الكريم على الناس من حولك، ولكنك لا تملك تحويل القلوب إليك ولا زج الإيمان في سويدائها. وإن مقام العبودية يقتضي أن تعلم بأنك لا تهدي من أحببت، حتى لو كان عمك الحبيب، إن على البشر أن يعلموا أنه لا سلطان لأحد على أحد، وأن الحكم كله لله تعالى، ولا يتحقق التوحيد إلا بهذه المعرفة ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وله الصفات

العليا، وعلى هذا المنوال نفهم كل آية جاء فيها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]، فالله وحده صاحب الأمر والقدرة المطلقة. ومن لوازم هذا الأمر حبه وعبادته والاستعانة به سبحانه، وليس من لوازمه أن يقع المرء تحت مطارق الجبرية القاتلة التي تسلب اللبيب لبه والعبد اختياره السامي لعقيدته ودينه.

ومفهوم آخر لا بد من وعيه وهو أن هذه الآية تكافئ العامل على عمله، حتى لا يقول قائل: هاهو رسول الله ﷺ يعمل تسع سنوات على إقناع عمه بدعوته ثم لا يؤمن بها، وقد يتصور السذج أن دعوته ذهبت هباء منثوراً، وضاعت كصيحة في وادٍ أو نفخة في رماد، وحتى لا يكون مثل هذا التصور يبين الله تعالى لنبیه ﷺ أنه قد بلغ ما عليه، وأن الإيمان لا يُفرض فرضاً ولا يجبر عليه الناس؛ لأن الإيمان هو تصديق القلب من داخله، وهذا التصديق سر لا يطلع أحد عليه إلا الله تعالى، ولا يملك أحد أن يتدخل في قرار الفرد واختياره، والذي يزعم أنه يملك ذلك فقد نصب نفسه إلهاً على الناس، وما ذكرناه لا يتعارض مع علم الله القديم منذ الأزل بما يصير إليه كل مخلوق، والعلم الكامل من صفات الله سبحانه وتعالى، وهذا يقتضي أن يعلم الشيء قبل كونه، والعلم بالهدى أو الضلال شيء، وإحداث الهدى والضلال شيء آخر، وهو أعلم بالمهتدين.

وهكذا فإن دور المسلم هو العمل الجاد بدأب ونشاط دون أن يستسلم لليأس أو للزعم القدري بأن الله أراد كذا أو كذا. وما أحوج أمتنا اليوم لأن تخلع عنها هذه الأغلال الجبرية وأن لا تخلط بين المعرفة التوحيدية الخالصة والسلوك الجبري العاجز.

القاعدة الحادية والعشرون

العمل العام أساس العمل الخاص ورافده

برنامج العمل الجماهيري الدعوي

أرسل الله تعالى محمداً ﷺ للناس كافة، فجعل من الناس أينما كانوا أمة دعوة، وجعل الله تعالى أمانة التبليغ في أعناق الدعاة، فهم الذين ورثوا مهمة الرسل والأنبياء.

ويلزم من هذا أن يتحرك الداعية بين جماهير الناس، لأن هؤلاء الجماهير هم روافد الدعوة، وبمقدار الصلة بها تتوسع القاعدة، ويتحقق للدعوة الكسب المادي والمعنوي.

وقد أدرك أعداء الإسلام خطورة اتصال الدعوة بالجماهير، وأدركوا دور الجماهير في نصره الدعوة وتأييدها، فعملوا بكل ما أوتوا من جهد على عزل الدعاة عن هذه الجماهير بالإشاعات المغرضة والتهم الملفقة، وصوروا للجماهير أن هؤلاء الدعاة إرهابيون متطرفون، غرضهم الإساءة لعامة الناس، وهذا كله لتظهر الدعوة الإسلامية بمظهر الطائفة المفارقة لعامة المسلمين، فيتحقق بذلك الفصل بين الدعاة وبين الأمة في الآمال والآلام.

رد الفعل:

وقد يعمل الدعاة أحياناً تحت ضغط ظرف ما على تكريس هذه الحالة

وتأكيدها، فينظرون إلى الجماهير نظرة تقلل من شأنهم وأثرهم في الأحداث، وقد يستعمل بعض الدعاة كلمات تعبر عن هذه النظرة، مثل: القطيع، والغوغاء، والدهماء، والغثاء؛ ومردود هذه الكلمات خسران في جانب الدعوة والدعاة، وكسب لأعدائهم من أصحاب الأفكار الهدامة والنحل المنحرفة.

تصويب:

وإذا أدركنا أن الدعاة قوم لم يأتوا من خارج هذه الأرض، ولم تلدهم أمهاتهم دعاة، وإنما هم جزء من هذه الجماهير، وقبل أن يكونوا دعاة ربما كان يُنظر إليهم بذلك المنظار الاسود، ثم تبدل حالهم وحسن مآلهم، ورزقوا من العلم والفهم ما ينبغي أن يقربهم من الناس، لا ما يفضلهم على الناس قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤]. وكونهم كانوا من عامة الناس ثم صاروا من الدعاة يلزم منه أن يدركوا أن جماهير الأمة هي رافد الدعوة، وأن الخير لا ينقطع ولا يتوقف.

وأما صيغ التعميم الحاكمة على أهل بلدة، أو مدينة، أو عشيرة بالسوء والفساد فهي عين السوء والفساد، ولا ينبغي أن يُقال: أهل مدينة كذا سيئون أو فئة كذا سيئة، وهذه الصيغ ابتلي بها عامة الناس حتى ما نكاد نجد أحداً إلا وهو ينسب التقصير والفساد إلى أهل بلدة أو مدينة. وقد تنتقل هذه الصيغ مع الإنسان من مرحلة ما قبل الدعوة إلى مرحلة ما بعد الدعوة.

أهلك الناس

وهذا رسول الله ﷺ يعلمنا كيف نفتح قلوبنا للخلق بعيداً عن الأحكام الجائرة والاطلاقات العامة، فيقول: «إذا قال الرجل: هلك الناس فهو

أهلكهم»^(١)، قال أبو إسحاق - أحد الرواة -: لا أدري أهلكهم بالنصب، أو أهلكهم بالرفع. وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، وفيه: «فهو أهلكهم»، وأخرجه أحمد من رواية أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم رجلاً يقول: هلك الناس فهو أهلكهم، يقول الله: إنه هو هالك»^(٢). وسواء كان المعنى أن القائل هو سبب هلاك الناس؛ لأنه لم يقم بواجبه في النصيح لهم والحرص عليهم، والصبر على جاهلهم ومسيئهم؛ أو أن يكون أكثر الناس هلاكاً، وهو بهذه الكلمة يعبر عن هلاكه هو وعن عجزه.

دعوة الله سعى لصالح الناس:

وفي الوقت الذي تتنافس فيه الدعوات والأفكار على الجمهور، وكل يحاول أن يحتوي هذا الجمهور لصالحه ويوظفه في صفه، فإن دعوة الله وحدها تعمل لخير الجمهور، ولا تريد من الجمهور أن يكون بقرة حلوباً لصالح فرد أو فئة أو حزب، ودعوة الله وحدها تعطي من يؤمن بالله رباً، وبالإسلام ديناً ومنهاج حياة أيّاً كان لونه وجنسه ولغته أرفع الرتب البشرية والمقامات العلية. ولا بد أن يُعبئ الدعاة قلوبهم بمحبة الناس، حتى يتغلغل هذا الحب في أعماق القلب، وأن تتحول هذا التعبئة سلوكاً يشيع منه الرفق والتواد والتراحم، حتى يُعرف الداعية من بين سائر الناس بمحبته للناس وحرصه عليهم وتفانيه في خدمتهم وسهره على صيانتهم من آفات الأفكار المنحرفة وشرورها. فهذا رسول الله ﷺ يدخل مكة، ويعاين فيها أولئك الذي أخرجوه وعذبوا أصحابه وقتلوه وقتلوا أحب الناس إليه حمزة، فما زاد على أن قال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

(١) أخرجه مسلم: (٤/٢٠٢٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/١٤١).

الموقف السابق:

والداعية لا ينطلق بين الجماهير وهو يحمل موقفًا سابقًا كونه من خلال العلاقات الأسرية المشوبة بالتحامل والأحقاد؛ إذ أن أكثر الناس يحتفظون في عقولهم وقلوبهم بكل تصرف سلبي كان قد تصرفه أحد الناس، حتى تجمعت هذه التصرفات على شكل ذكريات مؤلمة ينقلها الخلف عن السلف، ويتواصى الناس كابرًا عن كابر بالقطيعة ومقابلة الإساءة بالإساءة؛ وذلك لأنهم نشأوا بعيدًا عن هيمنة الإسلام على النفوس والعقول، فأصحبت المشاحنات العصبية والإقليمية هي الموجّه لكثير من الناس، وأصبح الفرد ينطلق من هذا الركाम من العلاقات غير الإسلامية، ومن أوجب الواجبات على الداعية أن يعلم الناس كيف يستطيعون تجاوز الذكريات السلبية. وقد يجد الداعية مقاومة من أقرب الناس إليه إذا لاحظوا عليه عدم اكتراثه بهذه الأحقاد التي قد تعتبر رصيدًا عزيزًا عند أصحابها، وعليه أن يصبر على هذه المقاومة.

العمل الإيجابي:

والعمل الإيجابي بين الجماهير يقوم على عنصرين رئيسين: المعرفة والسلوك.

وميادين المعرفة كثيرة، وميادين السلوك كثيرة كذلك. ولا بد من مراعاة التخطيط والبرمجة في التنفيذ كي يصل الداعية إلى نتائج إيجابية.

والمعرفة مقدمة على العمل؛ لأنها البصيرة الواعية التي تكشف مجالات العمل، وهذه المعرفة يمكن تحديدها على النحو التالي:

١- جمع المعلومات:

وأول شرط: ينبغي للداعية أن يقوم به هو معرفة الجمهور الذي يتعامل معه، سواء كان هذا الجمهور صغيراً على مستوى المؤسسة أو الدائرة، أو كبيراً على مستوى البلدة أو القطر، وتأتي هذه المعرفة من خلال جمع المعلومات، وأول شروط جمع المعلومات مراعاة الحذر واليقظة حتى لا يرتاب أحد بالداعية الذي لا يريد من عمله هذا كشف أسرار الناس والإطلاع على عوراتهم، وإنما يريد التعرف على مراكز النفوذ الاجتماعي والاتجاهات الفكرية وأصناف الناس، ومدى قربهم أو بعدهم عن الدعوة.

والشرط الثاني: هو مراعاة الموضوعية في جمع المعلومات وتحليلها، إذ أن كل مبالغة في حكم من الأحكام قد تؤدي إلى أخطاء فادحة، ناتجة عن سوء التقدير. وقد يصنف الداعية إنساناً ما في دائرة أعدائه بسبب تصرف لاحظته، فجعله هذا التصرف يتعامل مع هذا الإنسان على أنه صاحب فكر مضاد أو اتجاه معاد، فيكون سوء التقدير والتسرع في الحكم سبباً في استكثار الأعداء. وليس كل سلوك مفرد أو تصرف جزئي يدل على صيغة فكرية أو منهجية، فليس كل من تكلم عن العرب والعروبة قومياً، وليس كل من تكلم عن التأميم اشتراكياً.

والشرط الثالث: مراعاة منهجية النقل، فلا نأخذ الأخبار والمعلومات إلا عن الصادقين الضابطين لما ينقلون، ولا بد من ملاحظة أن بعض الصادقين لا يتحرون الدقة في نقلهم وأخبارهم؛ لأن الآفة في الذين أخبروهم وزودوهم بالمعلومات. وإذا أهملت هذه المنهجية فإن الأحكام ستكون جائزة غير عادلة.

والشرط الرابع: مراجعة المعلومات حول من يتخذهم الداعية أعداء فكريين للتخلص من آثار المبالغة وسوء التقدير، ومراعاة لما يطرأ على أصحاب الأفكار والمذاهب من تغيير سلبي أو إيجابي.

استدراك:

ولا تقف المعرفة عند حدود الاتجاهات والمذاهب والنشاطات الاجتماعية، بل تتناول أيضًا التعرف على أفراد الجمهور وأمزجتهم واحتياجاتهم وما يسرهم وما يحزنهم، وينبغي أن لا يغيب عن الداعية ما يصيب أفراد المجتمع من السراء والضراء، فإذا رزق أحدهم بولد كان الداعية أول المهنيين الذين يذكرون الوالد بنعمة الله عليه، وإذا نجح ولد أحدهم في مدرسة أو جامعة كان أول المعبرين عن سروره بهذه المناسبة باعتبارها مناسبة عزيزة يهتم بها كما لو أنه صاحبها. وإذا فقد أحدهم عزيزًا أو حل به مرض أو نزلت به مصيبة كان أول المواسين الذين يمدون أيديهم ويفتحون قلوبهم.

ونظرًا لاتساع دائرة المعلومات التي يحتاج إليها الداعية فقد يتبادر إلى الأذهان ما يجده الداعية من صعوبة ومشقة في الإحاطة بكل هذه الجوانب، ولكن هذه الصعوبة تزول عندما نقسم المجتمع إلى دوائر صغيرة على شكل أحياء، أو مؤسسات، ثم يتخصص كل داعية بدائرة محدودة تناسب مع قدرته وإمكاناته ويستطيع استيفاء المعلومات حول جمهورها.

٢- التصنيف:

وتأتي هذه المرحلة بعد جمع المعلومات فيقوم الداعية بتصنيف أفراد الجمهور إلى أصناف.

الصنف الأول: الأنصار والمحبون والأقرباء والأرحام، وهؤلاء يسرون بسرور الداعية، ولا ييخلون عليه في تقديم ما يحتاج إليه لتسهيل مهمته.

الصنف الثاني: الأعداء الفكريون، وهؤلاء يحملون عقائد معادية، ويعملون على نشرها، ويعتبرون الداعية عقبة في طريقهم، وذكاء الداعية يظهر في قدرته على ترتيبهم تبعاً لسلم عداوتهم، وتأثيرهم في المجتمع.

الصنف الثالث: المحايدون الذين لا يناصرون طرفاً على طرف، وينبغي أن يعتبرهم الداعية من فئة الأنصار؛ لكونهم مسلمين لا يحملون فكراً آخر، ولا يتبنون مذهباً معادياً للإسلام وأهله.

مبادئ عامة في السلوك والتعامل مع الجمهور:

ليس من السهل حصر جميع المبادئ العامة التي تساعد الداعية على تحقيق أهدافه في الميدان الجماهيري؛ لأن الإسلام كله يكون هذه المبادئ والأخلاق، وسنذكر بعض المبادئ التي نرى أنها جديرة بالاهتمام لاختصاصها الأكيد بهذا الميدان الدعوي.

١ - الاحتفاظ بالمعلومات:

فالمعلومات التي يجمعها الداعية ليوظفها في تعامله مع الجمهور ليست للنشر والتشهير. والداعية الواعي يحتفظ بها لنفسه دون إشاعتها، وهو يستطيع أن يخفي في عميق صدره جميع ما يعلمه، دون أن يظهر في فلتات لسانه أو يبدو على قسماط وجهه. وهو بذلك يحافظ على مستوى من الحياء لدى عامة الناس. ويستطيع أن يتعامل مع الناس دون أن يتحفظوا منه أو ينزلوا عنه.

٢- المداراة:

ولكي يتحرك الداعية في المجتمع حركة مجدية دون أن تقف في وجهه العقبات والعوائق فإن عليه أن يعرف كيف يداري هؤلاء الناس ويجاملهم، وهذه المداراة سنة حميدة سنّها لنا رسول الله ﷺ فعن عائشة رضي الله عنها أنه استأذن على النبي ﷺ رجل فقال: «اأذنوا له، فبئس ابن العشيرة، أو بئس أخو العشيرة، فلما دخل ألان له الكلام، فقلت له: يا رسول الله: قلت ما قلت، ثم ألت له في القول فقال: أي عائشة إن شر الناس منزلة عند الله من تركه الناس اتقاء فحشه»^(١). وفي رواية «إنه منافق أداريه عن نفاقه، وأخشى أن يفسد عليّ غيره».

ونستفيد من هذا الحديث أن النبي ﷺ كان يعلم من سوء أخلاق ذلك الرجل ما جعله يذمه ويذكره بما فيه، ولكنه ألان له الحديث وهش له، ولم يصارحه بما يعلمه منه لأن المصارحة في مثل هذا الموقف فحش، ولا تكون ثمرتها إلا قطيعة وعداء. ولا يعود الإصلاح ممكناً، بل تستشري نار الفساد. وهذا ما عبر عنه الصحابي الجليل أبو الدرداء عندما قال: «إنا لنكشّر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم»^(٢). والكشّر أكثر ما يطلق على الضحك، وفي رواية أخرى: «ونضحك».

وقد فهم علماؤنا الأجلاء هذا المبدأ من مبادئ التعامل فنجد علي بن خلف بن بطل أحد شراح البخاري المتوفي سنة ٤٤٩ هـ، يقول: المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس، ولين الكلام، وترك الإغلاظ

(١) رواه البخاري (متن فتح الباري) (٥٢٨/١٠).

(٢) البخاري، (متن فتح الباري) (٥٢٧/١٠).

لهم بالقول، وذلك من أقوى أسباب الألفة^(١).

الفرق بين المداهنة والمداواة: وقد يتبادر إلى الأذهان أن المداواة المذكور آنفاً هي نوع من المداهنة والنفاق، وقد يابها كثير من الدعاة أخذاً بمبدأ الوضوح والمصارحة في قول كلمة الحق والإشارة إلى عوج كل ذي عوج، وكأنهم فهموا أن هذا الأسلوب هو من باب كلمة الحق عند سلطان جائر، وهذا في غير موضعه؛ يقول الإمام ابن حجر في شرحه لصحيح البخاري، نقلاً عن القاضي عياض في كلامه على الحديث السابق:

والفرق بين المداواة والمداهنة أن المداواة بذل الدنيا لصالح الدنيا أو الدين، أو هما معاً، وهي مباحة، وربما استحبت، والمداهنة ترك الدين لصالح الدنيا، والنبى ﷺ إنما بذل له من دنياه حسن عشرته والرفق في مكالمته، ومع ذلك فلم يمدحه بقول، فلم يناقض قوله فيه فعله، فإن قوله فيه قول حق، وفعله معه حسن عشرة، فيزول مع هذا التقرير الإشكال بحمد الله تعالى^(٢).

ونخلص من هذا إلى أن المداهنة معاشره الفاسق وإظهار الرضى بما هو عليه واستحسان مذهبه من غير إنكار، فيكون المداهن قد بذل دينه من أجل دنياه في رضى الناس عنه. وأما أن يبذل الداعية شيئاً من الدنيا لأي إنسان فهذا أمر محمود، فنحن نجود بدنيانا ونبخل بديننا. وبناء عليه فإن من الجائز، بل من المندوب أن نكرم من لا نرضى دينه وعقيدته تألفاً لقلبه. وهذا معنى العبارة المنقولة آنفاً عن القاضي عياض: المداواة بذل الدنيا

(١) فتح الباري (١٠/٥٢٨).

(٢) فتح الباري (١٠/٥٤٥). والمقصود الرجل الذي قال له: بئس أخو العشيرة.

لصلاح الدنيا أو الدين، أو هُما معاً».

فما أحوج الداعية إلى فهم هذا المبدأ، وبتطبيقه يستطيع جذب قلوب الناس إليه فهو يجبر ولا يكسر؛ لأن كسر القلوب لا يعود على الدعوة إلا بالخسران، والقلب الكسير لا يجبر إلا بمشقة، وإن الرابط النفسي لا يوصل إذا انقطع إلا بعد جهد كبير.

٣- إفشاء السلام:

والسلام أول الوسائل وأفضلها لإقامة اتصال بين الداعية وبين جمهوره، وبهذا السلام يدخل الداعية إلى قلوب الخلق بما تشيعه هذه الكلمة من ظلال المحبة والوفاء والإخلاص. وقد شاء الله تعالى أن يجعل وسائل الاتصال الجماهيرية عبادات يتقرب بها المؤمن إلى الله، وجعلت هذه الوسائل من شعب الإيمان وخصاله؛ ولنسمع لنبينا العظيم ﷺ وهو يقول وقد سألته رجل: أيُّ الإسلام خير؟ فقال: «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»^(١). وهذا الحديث نص في أهمية السلام وبذله لجميع المسلمين، قال النووي: «وفيه بذل السلام لمن عرفت، ولمن لم تعرف، وإخلاص العمل فيه لله تعالى، لا مصانعة ولا ملقاً، وفيه مع ذلك استعمال خلق التواضع، وإفشاء شعار هذه الأمة»^(٢). ويقول ابن حجر رحمه الله: «أي لا تخص به أحداً، تكبراً أو تصنّعاً، بل تعظيماً لشعار الإسلام، ومراعاة لأخوة المسلم»^(٣).

(١) أخرجه مسلم، انظر شرح النووي ٩/٢، وأخرجه البخاري (بهامش فتح الباري ١/٨٢).

(٢) شرح مسلم للنووي (١١/٢).

(٣) فتح الباري، (١/٥٦).

والسلام من الحقوق الثابتة للمسلم، قال رسول الله ﷺ: «حق المسلم على المسلم خمس، رد السلام، وتشميت العاطس، وإجابة الدعوة، وعيادة المريض، واتباع الجنائز»^(١).

وما دام السلام شعار الإسلام فإن على الداعية أن يعمم هذا الشعار يلقيه على كل أحد، دون ملل أو سأم، وتكرار إلقاء السلام لا بد أن يثمر تعارفًا ثم تتوثق العلاقة، وتنتقل إلى ما وراء الكلمة من السلوك والعمل المشترك.

وقد يظن بعض الدعاة أن السلام لا يليق ببعض الناس لما هم عليه من خلق أو سلوك، وهذا الظن تنعكس سلبياته على الدعوة، إذ تُتهم بالطبقية، وأنها تربي أبناءها على العزلة والانفصال عن المجتمع، ويوصف الداعية بالتكبر والتعالي.

ولا يقتصر الداعية على الكبار فيخصهم بالسلام، بل يلقي السلام على الصغار، وإلقاء السلام على الصبيان يترك أثرًا حسنًا في نفوسهم، لأن هؤلاء محرومون من التقدير والاحترام فمن يحترمهم ويقدرهم هو الذي يكسبهم لصفه، أخرج الإمام مسلم، عن سيار قال: «كنت أمشي مع ثابت البناني فمر بصبيان فسلم عليهم، وحدث ثابت أنه كان يمشي مع أنس فمر بصبيان فسلم عليهم، وحدث أنه «أنس» كان يمشي مع رسول الله ﷺ فمر بصبيان فسلم عليهم»^(٢).

فالداعية الناجح لا ينسى هدفه في الوصول إلى قلوب الناس كبارًا أو

(١) أخرجه مسلم (متن النووي) (١٤٣/١٤).

(٢) أخرجه مسلم (متن النووي) (١٤٩/١٤).

صغاراً، وهو يقترب كل يوم من هدفه، وإذا كان الناس في غفلة عن هذه الأهداف الكبيرة وتشغلهم الأهداف الشخصية القريبة، فإن الداعية دائم الفكر دائب العمل مستمر التخطيط ليصل إلى أهدافه الكبيرة، ويرى في الطفل الصغير رجل المستقبل، وفي العامل الفقير المسؤول الكبير، فالقليل يكثر والصغير يكبر، والكسب لمن سبق وصبر وأحسن.

٤ - تألف الناس

والداعية يألف ويؤلف، وذلك بسبب تكوينه الذهني والسلوكي، ولما يتمتع به من رؤية واسعة وبُعد نظر، وهو يزيد من قوة ارتباطه بالناس يوماً بعد يوم. ويلتقي عليه عدد كبير من الناس؛ لأنهم يشعرون بحرصه عليهم، ورفقه بهم، فهو قوة جامعة لا قوة طاردة.

وتبدأ الألفة من القلب بالنية الصالحة وترك الغلظة، وتشرب الرقة والرحمة والرفق. وهذا ما علّمه الله تعالى لنبه ﷺ ليجذب قلوب الخلق إليه، فقال: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، أما الفظ فهو الغليظ الجانب السيئ الخلق. والغليظ القلب الذي لا يتأثر قلبه عن شيء، فقد لا يكون سيئ الخلق ولا يؤذي أحداً، ولكنه لا يرق لهم ولا يرحمهم^(١).

وإذا كان صاحب بضاعة ما يفهم أن تسويق هذه البضاعة لا يتم إلا إذا توافر الأساس النفسي، فإن الخلق الرفيع ولين الجانب من أسباب إقبال الناس على الشراء من التاجر، فكذلك أمر الداعية الذي يعرض سلعة

(١) التفسير الكبير للرازي (٩/ ٦٣-٦٤).

الإيمان. يقول الرازي: «إن المقصود من البعثة أن يبلغ الرسول تكاليف الله إلى الخلق؛ وهذا المقصود لا يتم إلا إذا مالت قلوبهم إليه، وسكنت نفوسهم لديه. وهذا المقصود لا يتم إلا إذا كان رحيماً كريماً، يتجاوز عن ذنبهم ويعفو عن إساءتهم، ويخصهم بوجوه البر والمكرمة والشفقة، فلهذه الأسباب وجب أن يكون الرسول مُبرراً من سوء الخلق. وكما يكون كذلك وجب أن يكون غير غليظ القلب، بل يكون كثير الميل إلى إعانة الضعفاء، كثير القيام بإعانة الفقراء، كثير التجاوز عن السيئات»^(١).

ولم كان الألفة في دين الله تعالى اعتبرت فريضة من فرائضه؛ قال القاضي عياض: «والألفة إحدى فرائض الدين وأركان الشريعة ونظام شمل الإسلام»^(٢). ومن أسباب حصول الألفة الورع وصدق السريرة والإخلاص، ولذلك جاء الربط بين إفشاء السلام وبين الصلاة بالليل والناس نيام، «عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه، قال: لما قدم النبي ﷺ انجفل الناس عليه، فكنت فيمن انجفل، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يقول: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالأرحام، وصلُّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»^(٣).

فالصلاة في الليل تربط العبد بخالقه فيرضى عنه، وإذا رضي الله تعالى عن العبد أَرْضَى العباد عنه. وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إن الله يُحِبُّ فلاناً فأحبه فيحبه

(١) التفسير الكبير للرازي (٦٤ / ٩).

(٢) النووي على مسلم (١١ / ٢).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٥١ / ٥)، والترمذي (٦٥٢ / ٤)، وقال: حديث حسن صحيح، ومعنى انجفل الناس: ذهبوا إليه مسرعين.

جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في أهل الأرض»^(١).

ومهما كان الداعية قوي الحجة حاضر البديهة، فإن حجته وبديته تعجز أمام عدم التوفيق والرضا منه سبحانه وتعالى.

ومن أسباب الإلف عدم منازعة الناس في دنياهم، أو منافستهم في المناصب، وهذا هو الزهد النافع، أي الزهد بما في أيدي الناس. وأكثر من ذلك فإن الداعية يؤثر الناس على نفسه ولو كان به خصاصة.

ومن أسبابه كذلك بذل المعروف، فالداعية يفكر دائمًا بإسعاد الناس وإيصال الخير إليهم ولو بالكلمة الطيبة، ومن كان هذا شأنه فإنه لا يعرف الشر ولا الأذى.

ومن أسبابه إطعام الطعام لما فيه من أثر بالغ على النفس البشرية، ولذلك ورد في الحديث: «أطعموا الطعام». وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفًا يُرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، فقال أبو موسى الأشعري: لمن هي يا رسول الله، قال: لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وبات لله قائمًا والناس نيام»^(٢). وكان صهيب رضي الله عنه يطعم الطعام الكثير فراجع عمر رضي الله عنه في ذلك فقال: أمّا قولك في الطعام فإن رسول الله ﷺ كان يقول: «خياركم من أطعم الطعام ورد السلام»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (متن فتح الباري) (٤٦١/١٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤/٤)، وأحمد (١٧٣/٢) و(١٥٦/١).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٦/٥).

ومن أسباب الإلف التهادي، فللهدية سحر خاص يصل الداعية بقلوب الناس، وهذه الهدية دليل على حب الداعية للمُهدَى إليه وتقديره له. وإذا كان التهادي جائزاً بين المسلمين والمشرّكين والمحاربين فهو أولى بين المسلمين، وقد جاء في الصحيح «أن عمر رضي الله عنه رأى حلة تباع، فقال للنبي ﷺ: ابتع هذه الحلة تلبسها يوم الجمعة وإذا جاءك الوفد، فقال: إنما يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة - وكانت من الحرير - فأتي رسول الله ﷺ منها بحلل، فأرسل إلى عمر منها بحلّة، فقال عمر: كيف ألبسها وقد قلت فيها ما قلت؟ قال: إني لم أكسكها لتلبسها، ولكن تبيعها أو تكسوها، فأرسل بها عمر إلى أخ له من أهل مكة كافر قبل أن يسلم»^(١). «وقد كان النبي ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها»^(٢).

وكم وصلت الهدية من الحبال المنقطعة؟ وكم غيرت من المواقف؟ وكل إنسان يعلم أثر الهدية في تحقيق المودة والمحبة. والداعية أولى الناس باستخدام هذه الوسيلة الفعالة من وسائل الاتصال الجماهيري.

٥- الداعية يخالط الناس ويصبر على أذاهم:

والداعية يتوقع الإساءة قبل الإحسان، ويعذر الناس في سيئ الأخلاق وغليظ الطباع؛ لأنهم حرموا ردحاً من الزمن من توجيه الإسلام وتربيته، ففسدت جوانب مهمة من جوانب تركيبتهم النفسي والاجتماعي، وأصبح دأبهم الغيبة والنميمة والهمز اللمز. والداعية الحكيم يتعامل معهم كما يتعامل الطبيب الرحيم مع مرضاه، ولهذا فإن الداعية مأمور بالصبر والاصطبار

(١) البخاري، متن فتح الباري (٢٣٢/٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٤/٣).

وانتظار النتائج دونما يأس أو كلال، وشعاره في ذلك قول النبي ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»^(١). وعندما يصل الدعاة إلى هذا المستوى الرفيع من إعذار الناس ومسامحتهم على زلاتهم، فإنهم يزيلون عوائق كثيرة سببها الحنق والغضب والرغبة بالمعاملة بالمثل. وقدوة الداعية في ذلك رسول الله ﷺ الذي عُرف بسعة صدره وكظم غيظه، قال عبد الله بن مسعود: «قسم النبي ﷺ قسمة كبعض ما كان يقسم، فقال رجل من الأنصار: والله إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله عز وجل. قلت أنا: لأقولن للنبي ﷺ - فأتيته وهو في أصحابه، فساررت، فشق ذلك عليه، وتغير وجهه، وغضب حتى وددت إني لم أكن أخبرته، ثم قال: «قد أؤذي موسى بأكثر من ذلك فصبر»^(٢).

٦- الداعية لا يغمط الناس حقهم، ولا ينكر لأحد فضله:

وذلك لأنَّ سفه الحق وغمط الناس من صفات المتكبرين، الذين لا يروق لهم أن يروا أحدًا فوقهم، ويحملهم الحسد والتنافس على إخفاء فضل الفضلاء وعلم العلماء. وأما الداعية فهو بريء من هذا العيب، وهو يعترف لكل صاحب فضل بفضله، ويتصف بالموضوعية في تعامله، ويقتدي بسنة النبي ﷺ الذي يقول: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجميل، الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(٣).

(١) الأدب المفرد (١٠٢)

(٢) صحيح البخاري (٥١٢/١٠) وفي الأدب المفرد ١٠٣.

(٣) أخرجه مسلم (٩٣/١).

ومعنى بطل الحق: دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً، ومعنى غمط الناس: احتقارهم. وهذا الموقف من الداعية يحقق السلام بينه وبين سائر الناس ويمهد له الطريق إلى قلوبهم، ويقيم أفضل وسائل الاتصال معهم.

٧- صلة الرحم:

ويتصف الداعية بحرصه على صلة رحمه، قياماً بفريضة من فرائض الدين. وتطبيقاً لسنة من سنته، وصلة الرحم تحقق الاتصال الحيوي بجماعة كبيرة من الناس يرتبط الداعية بهم برباط القربى، ويفترض هؤلاء الناس أن يكون الداعية وصولاً لهم. ولذا فإنهم ينكرون على الداعية عندما يقطعهم، ويحملونه من المسؤولية أكثر من غيره. والداعية الذكي يتوجه إلى هؤلاء من خلال الصلة المعروفة ليقدم إليهم دعوته بعد أن يقدم إليهم برّه. ولقد أمرنا رسول الله ﷺ بالتعرف على أنسابنا لا من أجل عصبية جاهلية ولكن من أجل تأدية الواجب نحو هؤلاء الأرحام، فقال عليه الصلاة والسلام: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثرة في المال، منسأة في الأجل، مرضاة للرب»^(١).

وقد اختار الله نبيه محمداً ﷺ وله في كل بيت من بيوت العرب رحم، وقامت الأدلة على ضرورة معرفة الأنساب والأرحام، وذلك لأداء الحقوق إليهم تبعاً لسلم مراتبهم، وقد ناقش ابن حزم في كتابه «جمهرة أنساب العرب» قول من قال: «إن علم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر». ثم قال: وضح أنه بخلاف هذا وأنه علم ينفع، وجهل يضر. وكان من بين أصحاب النبي ﷺ من يتقن علم النسب كابني بكر الصديق وأبي الجهم بن حذيفة

(١) أخرج الترمذي (٣٥١/٤)، وأحمد (٣٧٤/٢).

وجبير بن مطعم رضي الله عنهم. وكان أبو بكر أشدهم رسوخاً في العلم بجميع أنساب العرب، وقد أمر النبي ﷺ حسان بن ثابت أن يأخذ ما يحتاج إليه من علم نسب قريش عن أبي بكر الصديق^(١).

وكثير من الدعاة يهملون البحث في أنسابهم ظناً منهم أن ذلك من أمر الجاهلية. والجاهلية هي الفخر والخيلاء والعصبية، ومن الجاهلية القطيعة وإهمال الأرحام. وقد جعل القرآن الكريم تقطيع الأرحام قريناً للإفساد في الأرض، فقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا﴾ [محمد: ٢٢]. وقد بلغ من حرص هذا الدين على صلة الرحم أن أمر بصلة الرحم المشركة، فجاء عن النبي ﷺ أنه قال: «إن آل أبي فلان ليسوا بأوليائي إنما وليي الله وصالح المؤمنين، ولكن لهم رحم أبْلُها بِلَالها، أي أصلها بصلتها»^(٢).

والرحم سواء كانت مؤمنة أو غير مؤمنة قريبة أو بعيدة، فهي شُجْنة من الرحمن كما أخبرنا النبي ﷺ «إن الرحم شُجْنة من الرحمن، فقال الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته»^(٣)، والشجنة عرق من عروق الشجرة المشتبكة، ومعنى الحديث أن الرحم اشتق اسمها من اسم الرحمن فلها به عُلقة.

وقد حرم الله على قاطع الرحم دخول الجنة، قال النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع»^(٤).

(١) جمهرة أنساب العرب ٣-٥ بتصرف.

(٢) البخاري (متن فتح الباري) ١٠/٤١٩.

(٣) البخاري (متن فتح الباري) ١٠/٤١٧.

(٤) البخاري (متن فتح الباري) ١٠/٤١٥.

وبالمقابل فإن صلة الرحم بركة في الرزق والأثر، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من أحب أن ييسر له في رزقه، ويُيسر له في أثره فليصل رحمه»^(١).

وتكون صلة الرحم بالمال للقادر عليه، وبالعون على الحاجة، وبدفع الضرر، وبطلاقة الوجه، وبالדعاء. والمعنى الجامع: إيصال ما أمكن من الخير، ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة^(٢).

ولقد شاع التقاطع في زماننا هذا، حتى أصبح كل إنسان يميل إلى الأبعدين عنه، ولا يرغب بصلة الأقربين لما يجد من إساءاتهم وقطيعتهم، وإذا كان هذا التصرف له ما يبرره عند جمهور الناس، فإن الداعية مأمور بإحياء هذه الصلات والحض عليها، ولا تتم عبادته لله تبارك وتعالى إلا بها. وقد أخبر النبي ﷺ أن الواصل لا يكون المكافئ، فقال: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»^(٣). ومعنى الحديث أن صلة الرحم لا يشترط فيها التبادل، بل هي واجبة حتى مع القطيعة، فمن أراد أن يكون واصلًا فلا بد أن يبدأ هو بوصل من قطعه، ولا بد أن يعطى من منعه. وأن يقابل الإساءة بالإحسان. وأما إذا انتظر الصلة من الجانب الآخر فإنه لا يكون واصلًا.

والأرحام مراتب حسب قربها وبعدها من النسب، ودرجات حسب قربها وبعدها عن الدين. وصلة الرحم تبدأ بالأقرب حتى تصل إلى الأبعد. والبر واجب على كل حال، والولاية تفارقه في حال كون الرحم فاسقًا أو كافرًا أو

(١) البخاري (متن فتح الباري) ٤١٥/١٠.

(٢) فتح الباري ٤١٨/١٠.

(٣) البخاري (متن فتح الباري) ٤٢٣/١٠.

عدواً، لقول الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ [الممتحنة: ٨ - ٩].

ويلاحظ قوله في الآية الأولى: أن تبروهم، وفي الثانية: أن تولوهم، ومعنى ذلك أن النهي عن تولي هؤلاء لشدة عداوتهم، قال الرازي في تفسيره: «هذه الآية تدل على جواز البر بين المشركين والمسلمين، وإن كانت الموالاة منقطعة»^(١)، فإذا علم الداعية كل هذا كانت صلة الرحم ميداناً رحباً لدعوته، تصله بجماهير من الناس. ويكون عندئذ قطاع كبير من هؤلاء الناس على صلة بجماعة الدعاة، وهو كسب للدعوة والدعاة.

٨- الرفق:

ولابد أن يتصف الداعية بالرفق مع سائر الناس. والرفق لين الجانب بالقول والفعل. والأخذ بالأسهل والأيسر، وهو ضد العنف، وقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف»^(٢). ومن خلال الرفق يستطيع الداعية أن يفكر في الأمور وأن يتخذ المواقف الصحيحة، ولا يمكن ذلك من خلال العنف والتسرع. ورب كلمة يندفع الداعية إلى قولها ثم يتبين أن لها من الآثار السلبية ما يجعل جماعة كاملة تبذل وقتها وجهدها من أجل إصلاح ما أفسده عدم الرفق، ورب تصرف أهوج من إنسان محسوب على

(١) التفسير الكبير (٢٩/ ٣٠٤).

(٢) أخرجه مسلم ٤/ ٢٠٠٤.

الدعوة والدعاة يؤخر مسيرة الدعوة والدعاة. ولعل من أشد الأمراض الفتاكة بالدعوة والدعاة أن يكون فيها من يربي غيره على العنف ويطالبه باستعمال القوة وإنزال العقوبة على كل مخالف. وهذا السلوك يسلب الدعوة أهم مقوماتها وعناصر وجودها. وهذا ما يسعى أعداء الإسلام ليل نهار لإيقاع الدعاة فيه.

وكان دأب النبي ﷺ الرفق مع الناس كلهم؛ أخرج البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه «أن أعرابياً بال في المسجد فقاموا إليه، فقال: لا تَزِرْموه، ثم دعا بدلو من ماء، فَصَبَّ عليه». ومعنى «لا تَزِرْموه»: لا تقطعوا عليه بوله. وفي رواية الترمذي: «دخل أعرابي المسجد والنبي ﷺ جالس، فصلى فلما فرغ قال: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً، فالتفت إليه النبي ﷺ، فقال: لقد تحجرت واسعاً، فلم يلبث أن بال في المسجد، فأسرع إليه الناس، فقال النبي ﷺ: أهريقوا عليه سجلاً من ماء، أو دلّوا من ماء، ثم قال: إنما بُعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»^(١).

وفي هذه الحادثة كمال رفيقه ﷺ، وما أجمل أن يتأسى الدعاة بهذا الخلق الكامل.

ولابد أن يضع الداعية في عين الاعتبار طبائع الناس وأمزجتهم، وأنهم لا يتصرفون بطريقة واحدة. وهم أنواع وأصناف، ولا بد من مراعاة كل هذا، فالجاهل له طبيعة ومزاج، والبدوي له طبيعة ومزاج، والحضري له طبيعة ومزاج.

وتختلف الطبائع والأمزجة مع اختلاف البلاد، وقد يغلب على أهل قطر

(١) سنن الترمذي (١/٢٧٦).

ما روح الدعابة والمرح، وعلى أهل قطر آخر روح الجد والحزم. ويتصف شعب ما بقدرته على المجاملة ولين الكلام، ويتصف غيره بحدة المزاج وخشونة التعامل. والداعية الناجح يستوعب هذه الطبائع والأمزجة.

ومن حُرِّم الرفق فقد حُرِّم الخير كله^(١)، كما جاء في الحديث الشريف.

ومن لوازم الرفق أن لا يكون الداعية فاحشاً ولا متفحشاً. والفحش كل ما خرج عن مقداره حتى يستقبح، فالداعية لا يفحش في كلامه، ولا يجيب على الفحش بالفحش، ولا يكون سبباً ولا لعناً. وكل هذا من جهة كون الداعية أوسع قلباً وأعمق نظراً وأبعد هدفاً من غيره. فإذا كان الناس يتصفون بسرعة الاستجابة لدواعي الغضب والنزق فما ذلك إلا لقصر في أهدافهم، وملاحقة لسفاسف الأمور وصغائرها. والداعية لا يكون كذلك، بل هو يعمل على ترويض الطباع الشاردة وتربية الأخلاق القاسية، ومستلزمات هذه الوظيفة كبيرة.

٩- مراعاة ذوي الهيئات والوجهاء:

ولا يهمل الداعية وجوه الناس وذوي النفوذ فيهم، بل يقبل عليهم، ويستطيع بحسن إدارته وثاقب بصيرته أن يوظف الكثير من هؤلاء لنصرة دعوته. وما يشيع على ألسنة الدعاة أحياناً من كلمات تدعو إلى إهمال هذه الفئة هو مخالف لسنة النبي ﷺ في تعامله مع الوجهاء والزعماء. كما جعل لهم القرآن الكريم سهماً من الزكاة وهو سهم المؤلفات قلوبهم، وذلك لأن هؤلاء هم أناس تتحرك بحركتهم فئات كبيرة من الناس، فراعى الإسلام ما

(١) رواه مسلم ٤/٢٠٠٣.

لهم من نفوذ في اتباعهم فاستمال قلوبهم لكي لا يقفوا في طريق أتباعهم الراغبين في دين الله تعالى.

وهؤلاء الوجهاء منهم العقلاء الحكماء، وهؤلاء تراعى مكانتهم ويستفاد من صفاتهم ومزاياهم، فقد قال النبي ﷺ لأشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة»^(١). وقد يكون منهم الأحمق المطاع ومثل هذا يتقى شره وتستل سخيمة صدره بشيء من المداراة واللين من غير مداينة أو وصفه بما ليس فيه. ويشهد لهذا ما رواه عروة عن عائشة «أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فلما رآه قال: بئس أخو العشيرة، أو ابن العشيرة، فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت كذا وكذا، ثم تطلعت في وجهه وانبسطت إليه، فقال رسول الله ﷺ: يا عائشة، متى عهدتني فاحشاً، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره»^(٢).

وهذا الرجل هو عيينة بن حصن الفزاري، وقد وصفه النبي ﷺ أنه «أحمق مطاع» وذلك عندما جاء إلى النبي ﷺ وعنده عائشة - وكان ذلك قبل الحجاب - فقال: من هذه؟ قال: أم المؤمنين، قال: الا أنزل لك عن أجمل منها، فغضبت عائشة، وقالت: من هذا؟ قال: هذا أحمق مطاع»^(٣).

وإكرام هؤلاء الوجهاء إكرام لأقوامهم، وينعكس هذا الإكرام على الدعوة والدعاة. وإذا تعرض أحدهم لأزمة ما فإن على الداعية أن يقلل عثرته

(١) أخرجه الإمام مسلم (شرح النووي) ١/ ١٩٢.

(٢) أخرجه البخاري (متن فتح الباري) ١٠/ ٤٥٢.

(٣) فتح الباري (من رواية سعيد بن منصور) ١/ ٤٥٢.

وأن يرحمه في موقف الذل، بذلك أمر النبي ﷺ عندما قال: «أقبلوا ذوي الهيئات عثراتهم»^(١).

١٠- السعي في حوائج الناس وحل مشكلاتهم:

والداعية الناجح يسعى في حوائج الناس، ويحمل عنهم همومهم، ويشاركهم في آلامهم وأفراحهم، ويعينهم على نوائب الحق. فهو لا يدخر وسعاً في تقديم كل عون ممكن لهم، وهذا ما وصف به رسول الله ﷺ يوم أن ذهب يرجف فؤاده إلى خديجة، فقالت له: «كلاً والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»^(٢).

قال ابن حجر: «استدلت على ما أقسمت عليه من نفي ذلك أبداً بأمر استقرائي، وصفته بأصول مكارم الأخلاق؛ لأن الإحسان إما إلى الأقارب، أو إلى الأجانب، وإما بالبدن، أو بالمال، وإما على من يستقل بأمره، أو من لا يستقل، وذلك كله مجموع فيما وصفته به»^(٣)، وكذلك فقد وصف ابن الدغنة أبا بكر عندما خرج مهاجراً، فقال له: «فوالله، إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم، ارجع فأنت في جوارى»^(٤). وهذه الحادثة تبين لنا بصورة جلية كيف يكون الداعية مع الناس، وكيف يجد الداعية تقدير الناس في الأزمات والملمات.

والداعية لا يمل من فعل الخير، ويبذل في سبيل ذلك قُصارى جهده،

(١) مسند الإمام أحمد ٦ / ١٨١.

(٢) البخاري (متن فتح الباري) ١ / ٢٢.

(٣) فتح الباري ١ / ٢٤.

(٤) سيرة ابن هشام ١ / ٣٧٣.

ويشتد ساقه مع الملهوف، ويجب من يستنصره ويستصرخه، وخلافاً لما يعتقد بعض الناس من أن التدخل في شئون الناس لحل خصوماتهم شغل بما لا يعني فإن النبي ﷺ قد جعل العدل بين الاثنين صدقة وإغاثة الملهوف صدقة فقال: «كل سُلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، تعدل بين اثنين صدقة، والكلمة الطيبة صدقة»^(١). وفي رواية أخرى: «على كل مسلم صدقة، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: فيعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق، قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل، قال: يعين ذا الحاجة الملهوف»^(٢).

والداعية الناجح لا يبخل على أحد ببذل شفاعته ووساطته، فإذا طلب إليه أحد الناس أن يسعى معه وأن يعبر له عن حاجته سار مسرعاً إلى ذلك. والشفاعة سنة محمودة سنّها النبي ﷺ عندما قال: «اشفعوا إليّ ولتؤجروا وليقض الله على لسان نبيه ما شاء»^(٣). وهذه الشفاعة لا تبدل الحقوق ولا تسقط الواجبات، وإنما توصل الحق إلى صاحب الحق ويعود خيرها على كل حال على الدعوة والداعية.

صناعة القيادات الجماهيرية:

وينبغي أن لا تكون الدعوة زاهدة في قيادة الجماهير؛ لأن هذا الزهد يدفع غيرها إلى قيادة الجماهير وتوجيهها، وينبغي أن لا تكون بعض سلبيات العمل الجماهيري سبباً في نسيان إيجابياته الكثيرة، فقد يرد من بين سلبياته ما يتعرض له القائد من الغرور وحب الجاه والفردية واحتمال تكوين المحاور

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٤٥)، ومسلم (١٠٠٨) من حديث أبي موسى الأشعري.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٧٢) من حديث أبي موسى الأشعري، وقال: حسن صحيح.

مما يربط الأفراد بالشخص لا بالفكرة، وجميع هذه السلبيات احتمالية أمام ما يمكن تحقيقه بعون الله من نصر لدعوة الله عن طريق هذه القيادات.

ولتكوين القيادات الجماهيرية لا بأس من مراعاة الوسط الاجتماعي باختيار العناصر المرشحة للقيادة من الدعاة ذوي المكانة الاجتماعية العائلية أو العلمية أو المالية إذا أمكن؛ لأن العائلة والرتبة والمال هي مرتكزات القيادة في العالم المعاصر، وستبقى هذه المرتكزات معتبرة تشد الناس إليها إلى أن يهيمن الإسلام على المجتمع في العقيدة والسلوك والنظم، والناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا.

وللقيادة تكاليفها الكثيرة ومن يرشح لهذه المهمة لابد أن يعان عليها ليقوم بمطالبها سواء كانت هذه المطالب معنوية، أو مادية، أما المعنوية فأن يحيطه إخوانه بشيء من العناية والاهتمام للفت أنظار الناس إلى مكانته، وأن يذكره بالخير والإجلال والتوقير، وأما المادية فالتوسعة عليه في داره ومعيشته وتحمل المغارم عنه.

ولابد من تربية واعية لهذه القيادات بأن تدرس الرأي العام وصناعته ومكوناته، وتتعرف على علم نفس الجمهور، والتيارات السائدة في المجتمع، وأن تتعلم الكثير عن عادات المجتمع وأعرافه، وأن تطلع على الأنظمة والقوانين بقدر يجعل حركتها الاجتماعية واعية، لأن هذه القيادات تتعامل مع الأجهزة المختلفة.

القيادات الجماهيرية قيادات متخصصة:

ولا يتحقق كل ما سبق إلا إذا كانت القيادات الجماهيرية متخصصة في ميدانها بأن تكون وظيفة القيادة الاجتماعية غير الوظيفة التربوية والتنظيمية.

ونحن نعيش في زمن التخصص القائم على اتساع ميادين المعرفة وعلى تعقيد شئون الحياة، فالعمل الاجتماعي له ميادينه وتدريباته، والعمل التربوي له ميادينه وتدريباته، وكذلك العمل التنظيمي، فالقائد الجماهيري يعيش بين الجماهير ويقضي ليله ونهاره في حل مشكلاتهم والتعرف عليهم. وعندما يقوم المربي أو المنظم بهذا العمل فسيكون إما على حساب التربية أو التنظيم.

ضرورة العمل النقابي:

وقد أصبحت النقابات المهنية مراكز ثقل اجتماعي، وتدخلت هذه النقابات في كثير من بلاد العالم في اختيار البرامج السياسية والاقتصادية، وأثرت في الميادين التشريعية، وتكونت النقابات في بلاد العالم الإسلامي وسيطر عليها في بداية نشأتها أصحاب المذاهب الهدامة والأفكار المستوردة، وذلك لبعد العنصر الإسلامي المتحرك عنها، وكان الظن السائد أن العمل النقابي لا يمكن أن ينسجم مع الإسلام، أو أنه صورة من صور الترقيع للواقع. ولكن تبين خطأ هذا الظن عندما قامت أنظمة ودول من خلال هذا العمل النقابي، وذاق المسلمون أحياناً على أيدي هذه النقابات الويلات، والنقابات تشكل بمجموعها قوة اجتماعية جماهيرية، إن لم تكن للدعوة فهي عليها. وإن لم تجد من يأخذها في طريق الهداية فستؤخذ في طريق الضلال والإضلال.

أما القول بأن العمل النقابي لا ينسجم مع عقيدة الإسلام وشريعته فهذا قول مردود؛ لأن المجتمع المسلم عرف مثل هذه التجمعات النقابية، وما زال لقب شيخ التجارين وشيخ الحدادين معروفاً في بعض البلاد الإسلامية،

وقد نظم المسلمون أصحاب كل فئة بطريقة تحدد حقوقهم وواجباتهم. وإذا كانت القوانين والأنظمة النقابية لا تنسجم مع الإسلام فهذا لأن المتنفذين في النقابات صاغوا أنظمتها وفق مبادئهم وأفكارهم. والمسلم مطالب بالعمل على تغيير كل قانون يتعارض مع قانون الإسلام وشريعته.

وأما القول بأن العمل النقابي صورة من صور الترقيع، فغير مُسَلَّم لأن تكوين المجتمع المسلم لا يأتي من الفراغ ولا يأتي من فوق، بل يتكون المجتمع من خلال اتجاه أفراده وتجمعاته.

وإذا كان اتجاه الأفراد والجماعات مخالفاً للاتجاه الإسلامي فإن المحصلة مجتمع لا إسلامي، وإذا كان اتجاه الأفراد والجماعات في المسار الإسلامي فالمحصلة مجتمع مسلم. ولو قبلنا قول دعاة الإصلاح الجذري الذين ينتظرون قوة سحرية خارجية تغير كل شيء لعاش المسلمون في مأس فكرية وسلوكية أكبر بكثير مما يجدونه. وما دامت الحياة لا تتوقف بل هي سائرة ولا بد أن يعيش المسلم فيها واقعاً معيناً، فإن عليه أن يُدخل في الواقع ما يستطيع من نظم الإسلام وأحكامه، فإذا قصر في بعض الأمور انتظاراً للكل فهو آثم، ويكون قد أعطى بعض الأحكام المخالفة الإذن بوجودها، وهو قادر على إزالتها. ولا يقول عاقل بترك نقابة ما لأنها تتعامل بالربا؛ بحجة أن العمل على إزالة الربا ترقيع لا تزول بإزالته جميع المخالفات. وإذا استطاع مسلم أن يكون له نفوذ في نقابة فيحارب موائد الخمر أو أبواق الدعاية للأفكار الإلحادية والعلمانية، ثم تخلف عن هذا فهو غاش لله تعالى ولرسوله ﷺ ولجماعة المسلمين.

والحمد لله رب العالمين

المراجع

- ١- القرآن الكريم
- ٢- الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.
- ٣- البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، مطابع الشعب، القاهرة، ١٣٧٨هـ.
- ٤- البغدادي، عبد القاهر، الفرق بين الفرق، دار المعرفة، بيروت.
- ٥- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، الجامع الصحيح، مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٣٥٦هـ.
- ٦- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، الفتاوى الكبرى، مطبعة الرسالة، بيروت، ١٣٨٦هـ.
- ٧- الحاكم، محمد بن عبد الله، معرفة علوم الحديث، دار الكتب المصرية، القاهرة.
- ٨- ابن حجر، أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٠هـ.
- ٩- ابن حزم، علي بن أحمد، الفصل في الملل والنحل، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٥م.
- ١٠- ابن حزم، علي بن أحمد، المحلي، المطبعة المنيرية، القاهرة، ١٣٥٢هـ.

- ١١- ابن حنبل، الإمام أحمد، المسند، مصور عن طبعة الحلبي، المكتب الإسلامي، بيروت.
- ١٢- الخطابي، حمد بن سليمان، معالم السنن.
- ١٣- الخطابي، حمد بن سليمان، العزلة، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٥هـ.
- ١٤- أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث، السنن، ط١، بتحقيق عزت عبيد الدعاس، دار الحديث، حمص، ١٩٦٩م.
- ١٥- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، التفسير الكبير، ط٢، دار الكتب العلمية، طهران.
- ١٦- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ١٣٩٥هـ.
- ١٧- الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الاعتصام، دار التحرير، القاهرة، ١٩٧٠م.
- ١٨- الشنقيطي، محمد حبيب الله، زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم، مؤسسة الحلبي، القاهرة.
- ١٩- ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ط٨، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤م.
- ٢٠- ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، ط٣، مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٣٩٠هـ.
- ٢١- القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، مصور عن دار الكتب المصرية، دار القلم، القاهرة، ١٣٨٦هـ.

- ٢٢- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، إغاثة اللفهان، دار المعرفة، بيروت.
- ٢٣- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، زاد المعاد، ط٢، مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٩٥٠م.
- ٢٤- ابن كثير، إسماعيل، البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٤٨هـ.
- ٢٥- ابن ماجة القزويني، محمد بن يزيد، السنن، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة عيسى الحلبي، القاهرة.
- ٢٦- الماوردي، أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.
- ٢٧- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ط٤، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٩٥٩م.
- ٢٨- محمد عبده، شرح العقائد العضدية، ط١، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٣٢هـ.
- ٢٩- مسلم بن حجاج، الجامع الصحيح، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٣٧٤هـ.
- ٣٠- المقرئ، أحمد بن علي، إمتاع الأسماع، ط٢، تحقيق محمود شاكر، الشؤون الدينية بدولة قطر.
- ٣١- مكي بن أبي طالب، الكشف عن وجوه القراءات، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠١هـ.
- ٣٢- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، مصور عن طبعة بولاق، المؤسسة المصرية العامة القاهرة.

- ٣٣- أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٣٢م.
- ٣٤- النووي، يحيى بن شرف، المنهاج في شرح صحيح مسلم، المطبعة المصرية القاهرة، ١٣٧٥هـ.
- ٣٥- الهيثمي، علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتب، بيروت، ١٩٦٧م.
- ٣٦- الهيثمي، علي بن أبي بكر، موارد الزمآن إلى زوائد ابن حبان، المطبعة السلفية، القاهرة.

الفهرس

٥	مقدمة الطبعة الأولى
١١	مقدمة الطبعة الثانية
١٣	مقدمة الطبعة الثالثة
١٥	القاعدة الأولى: الدعوة إلى الله سبيل النجاة في الدنيا والآخرة
٢٣	القاعدة الثانية: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُر النَّعَم»
٢٧	القاعدة الثالثة: الأجر يقع بمجرد الدعوة ولا يتوقف على الاستجابة
٣١	القاعدة الرابعة: على الداعية أن يصل إلى رتبة المُبَلِّغ وأن يسعى إلى البلاغ
٤٣	القاعدة الخامسة: على الداعية أن يقدم الجهد البشري وهو يطلب المدد الرباني
٥٣	القاعدة السادسة: الداعية مرآة دعوته والنموذج المعبر عنها
٥٧	القاعدة السابعة: خاطبوا الناس على قدر عقولهم
٦١	القاعدة الثامنة: الابتلاء سنة الله تعالى وهو السبيل لتمثل الدعوة
٦٥	القاعدة التاسعة: مجال الدعوة واسع فليتنخير الداعية لدعوته
٧٠	القاعدة العاشرة: الزمن عنصر فعال من عناصر الدعوة
٧٣	القاعدة الحادية عشرة: الدعوة فن وقيادة وهي تقوم على التخطيط والمتابعة
٧٩	القاعدة الثانية عشر: الدعوة صورة أكيدة من صور الجهاد
٩٥	القاعدة الثالثة عشرة: الدعوة سلعة شريفة لا تُباع بالأعراض الدنيوية
٩٩	القاعدة الرابعة عشرة: التعرف على المدعو عامل أساس في كسبه
١٠٣	القاعدة الخامسة عشرة: المعاصرة ومعرفة البيئة العامة من أسباب نجاح الدعوة
١٠٧	القاعدة السادسة عشرة: في الفرق والفتن والعزلة والجماعة

القاعدة السابعة عشرة: الفهم الصحيح سبيل العمل الصحيح	١٣٣
القاعدة الثامنة عشرة: الفهم السائد والفهم الواجب	١٤٩
القاعدة التاسعة عشرة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض من فروض الأمة	١٥٥
القاعدة العشرون: أشد من هجران القرآن مخالفة مقصوده ومناقضة أهدافه	١٦٣
القاعدة الحادية والعشرون: العمل العام أساس العمل الخاص ورافده	١٦٩
المراجع	١٩٧
الفهرس	٢٠١